

بين القصص الرباني والقصص الإنساني دراسة مقارنة



د. وليد محمد عبد العزيز الحمد (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعين به ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيراً وبعد ،
فإن القرآن الكريم بحر لا ينضب معينه، ولا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي معارفه، ومهما أخذ منه الآخذون، ودرسه الدارسون، وأبحر فيه المبحرون، سيظل زاخراً، كأن لم يؤخذ منه شيء.

(*) أستاذ مساعد بقسم الدراسات الإسلامية - الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب - كلية التربية الأساسية - قسم الدراسات الإسلامية - دولة الكويت.

فلم يحظ كتاب من الكتب المقدسة أو غير المقدسة بمثل ما حظي به القرآن الكريم من دراسات حيث نال عناية طوائف عديدة من العلماء منذ نزوله حتى الآن، وسيبقى محل عناية الدارسين واهتمامهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . هذه العناية وذلك الاهتمام ليسا بالأمر الغريب، فلم يعرف على مدى التاريخ كتاب كان سبباً مباشراً في بناء حضارة، وتأسيس ثقافة مميزة غير القرآن الكريم، فهو يحتوي كثيراً من القيم التاريخية والعلمية والأدبية، وهذه القيم تمثل نوعاً من الأسرار، شاء الله - سبحانه - أن يكشف في كل عصر بعضها على يد بعض من عباده .

ولعل ذلك هو السر في تدفق سيل المؤلفات والدراسات التي تخرجها المطابع في كل يوم من الأيام، فكل يؤمل أن ينفحه الله بعض نفحاته عن هذا القرآن المعجز .

وحسب المرء أن يتطلع إلى دراسة قرآنية يجلو بها بعض غوامض القرآن، أو يكشف بعض أسرارهِ .

وباب القصص القرآني فسيح، وساحته رحبة، تتسع لأهم الدارسين والباحثين، فما على المرء إلا أن ينظر، ويحط بساحته، مادام يملك أدوات النظر، وأسباب التأمل، ويعرف الطريق إلى الحق، ومادام يستشرف نبل المقصد، وطهارة الغاية، فامتلاك الأداة، وحسن النية، ونبل القصد، كلها كفيلة ببلوغ المراد كله أو بعضه على الأقل .

إن التوجه إلى القصص القرآني بوصفه مورداً نستقي منه أسس فن القصة لا يعني أن نتعامل مع القرآن على أنه كتاب قصص وتسلية، ولكن لا ينبغي أن ننسى " أن معجزة القرآن معجزة بيانية أساساً، ولهذا لا ينبغي أن ننكر عليه أن يكون من مقاصده الإتيان بفنون وألوان من فن القصة، ولا نستبعداها عليه، بل

المنتظر أن يكون ما يأتي به منها ليس كمثله شيء، ولا يطاوله فن" (١).

ومن صدق التوجه، بل من سلامة المنهج، أن ننبه إلى أمر في غاية الأهمية وهو: أن القيم الدينية مقدمة دائماً على القيم الفنية، في دراستنا للقصة القرآنية، بل كان السعي إلى إثبات تسخير الفن في خدمة الدين والعقيدة من قصص القرآن أساساً قوياً من أساسيات منهج هذه الدراسة، ولو كان العكس لفسد المنهج، وشاھت النتائج تبعاً لفساد المنهج.

أهمية دراسة هذا الموضوع:

(١) أن القصة الفنية شاعت في العصر الحديث، بما تحمل من مبادئ ومفاسد كادت تهدم الأخلاق وتقوضها من أساسها، وأن شيوعها أوشك أن يورث وجه الشعر العربي الذي اعتز به العرب على مدار العصور، وتعاقب الدهور.

(٢) أن من أهم القضايا المثارة في الساحة الأدبية ما يسمى: الأدب الإسلامي، وهي قضية شائكة، والخوض فيها يشبه المشي على الشوك، يدمي الأقدام، ويدعي بلوغ الغاية أمراً جد عسير.

ومن أهم جوانب هذه القضية أن بعض المتحمسين لها يريد أن يبدأ التنظير لها من يومنا الحاضر، دون أدنى التفاته إلى تراث أسلافنا. وهذه النظرة - التي تقطع الرحم بين الماضي والحاضر - تأتي في وقت يرى فيه أحد المستشرقين خلاف ما يرى الدارس العربي المسلم، إذ يقول:

"إذا أراد الناقد أو المنظر العربي أن يقتبس من الفكر الغربي فإن عليه - في البداية - أن يرجع إلى أصله العربي، وأن يفهمه فهماً بنائياً، وأن يعي مسئوليته الخاصة فيما يتعلق بالموازنة بين عبء الماضي وقلق الحداثة، وهذا هو منهج المنظر والناقد الغربي

(١) بدائع الإحصار القصصي في القرآن الكريم، د: كاظم الظواهري، ص ٧٤. ط دار الصابوني، ودار الهداية، الطبعة الأولى، ١٩٩١م، ١٤١٢هـ.

في نفس الوقت، فالوعي بين الثقافة الأصيلة وتيار التجديد مسئولية كبيرة يتحملها الناقد والمنظر العربي" (٢).

(٣) الرغبة في الإسهام في وضع تصور لمنهج أدبي يحكم فن القصة إبداعاً ونقداً، ولا يخفى أن أهم وجوه الإعجاز القرآني بلاغته، التي تتقاصر دونها قدرات المبدعين من البشر مهما أوتوا من فصاحة وبيان. والقرآن هو المثل الأعلى لفنون القول المتعددة، ومنها القصة بطبيعة الحال، ولم لا يكون تميز القصص القرآني أدبياً استمراراً لإعجاز القرآن، خاصة أن علماء الإعجاز نصوا على أن التحدي بالقرآن مستمر في كل العصور وليس مقصوراً على زمن النبوة وحده؟.

(٤) أن بعض كتاب القصة في الأدب العربي الحديث قد انعطفوا ناحية القصص القرآني، يستوحونه ويتمثلونه، وينسجون على منواله، فكان أحدهم يأخذ القصة القرآنية، ويصوغها في قالب عصري ويغير من أحداثه، وأسماء شخوصه، وربما يخرج بها عن المنهج القرآني في الغاية والبناء الفني على السواء.

(٥) أن بعض الذين درسوا القصص القرآني قد انحرف عن طريق الجادة، وسار على غير هدى فقال في القرآن مالا يصح قوله، لذا كان من عناية هذا البحث تفنيد بعض المزاعم الفاسدة التي لم تحظ بعناية الدارسين عناية مستحقة.

وكانت هذه البواعث - مجتمعة - وراء التوجه إلى جعل هذه الدراسة عن القصص القرآنية دراسة فنية في معظمها، ولعل عنوانها يوضح الهدف منها، وأنه هدف فني في المقام الأول والهدف الرئيسي منها يتمثل في: استخلاص الأسس الفنية للقصة من القرآن الكريم، وذلك من خلال: استعراض القصص القرآني في توافق بنائه وأساليبه مع مضامينه ومرامي.

(٢) من حوار مع المستشرق الأميركي ياروسلاف ستينكيفتش، أستاذ الأدب العربي في جامعة شيكاغو الأمريكية أجرته: سلوى العناني، وعنونت له (لإستشراق الأميركي والأدب العربي) مع عنوان جانبي (الأصل في النقد هو العودة إلى الجذور وموازنتها بالجديد) ... الأهرام المصرية - الجمعة ١٣ / ٨ / ١٩٩٦م، ص: ٣.

وللوصول إلى هذا الهدف الأساسي تستعين الدراسة بعرض بعض عناصر القصة على القصص القرآني - من الناحية التطبيقية - وبعض الأجناس الأدبية، لبيان دور القرآن الكريم في التأصيل لهذه العناصر.

كما تعني الدراسة - أيضاً - بيان المقاصد والأهداف التي ورد القصص القرآني من أجلها بما يوضح: تناسب الهدف من القصص القرآني مع الغاية من القرآن، وانتخاب الأحداث في القصة القرآنية، وتكرارها، مجملتها أحياناً، ومفصلة أحياناً أخرى. ويجب ألا ننظر إلى القرآن بوصفه نصاً أدبياً فقط، يعرض على منهج الدراسة الأدبية كما لو كان نصاً أدبياً من صنع البشر، إن القرآن الكريم كتاب دين وتشريع في المقام الأول، وقيمه الدينية والتشريعية هي المقدمة على كل ما عداها، ولكن ينبغي أن نذكر أن النظرة إلى القرآن الكريم قد انفسحت - في العصر الحديث - فصارت تشمل القيم التاريخية والعلمية والأدبية، بالإضافة إلى القيم الأساسية، أعني القيم الدينية والتشريعية.

دراسات سابقة:

هناك دراسات عدة في موضوع القصة القرآنية، وكل له وجهته ومراده، والقرآن مائدة لا تنضب، وبحر لا يغيض ماؤه، كما أن القدماء والمعاصرين على السواء أدلو بدلوهم في هذا الأمر، لكن في العصر الحديث اتخذ الأمر وجهة جديدة أحياناً تكون فيها جرأة شديدة على حرمة القرآن، وأحياناً تشكيك متعمد في قدسية النص، من ذلك ما ذهب إليه (طه حسين) حول قصة (إبراهيم) - عليه السلام - وبنائه الكعبة^(٣) إلا أن علماء الإسلام تصدوا له وردوا عليه وبينوا المحجة بأوضح حجة.

ومن ذلك الدكتور محمد أحمد خلف الله من مصر قدم رسالة لنيل درجة

(٣) انظر: على هامش السيرة. طه حسين، دار المعارف.

(الدكتوراه) وموضوعها (الفن القصصي في القرآن) أثارت جدلاً طويلاً، حتى كتب عنها الأستاذ (أحمد أمين) - وهو أحد أعضاء اللجنة الذين اشتركوا في مناقشة الرسالة - تقريراً بعث به إلى عميد كلية الآداب، ونشر في مجلة (الرسالة) وقد تضمن التقرير نقداً لاذعاً لما كتبه الطالب الجامعي، وإن كان أستاذه المشرف قد دافع عنه .

وصدر الأستاذ (أحمد أمين) بالعبارة الآتية :

(وقد وجدتُها رسالة ليست عادية، بل هي رسالة خطيرة، أساسها أن القصص في القرآن عمل فني خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار من غير التزام لصدق التاريخ . (والواقع أن محمداً فنان بهذا المعنى)، ثم قال : (وعلى هذا الأساس كتب كل الرسالة من أولها إلى آخرها، وإني أرى من الواجب أن أسوق بعض أمثلة، توضح مرامي كاتب هذه الرسالة وكيفية بنائها)، ثم أورد الأستاذ (أحمد أمين) أمثلة منتزعة من الرسالة تشهد بما وصفها به من هذه العبارة المجملية (٤) .

كإدعاء صاحب الرسالة أن القصة في القرآن لا تلتزم الصدق التاريخي . وإنما تتجه كما يتجه الأديب في تصوير الحادث تصويراً فنياً، وزعمه أن القرآن يختلق بعض القصص وأن الأقدمين أخطأوا في عد القصص القرآني تاريخاً يعتمد عليه . . والمسلم الحق هو الذي يؤمن بأن القرآن كلام الله، وأنه منزّه عن ذلك التصوير الفني الذي لا يعنى فيه بالواقع التاريخي، وليس قصص القرآن إلا الحقائق التاريخية تصاغ في صور بديعة من الألفاظ المنتقاة، والأساليب الرائعة .

ولعل صاحب الرسالة درس فن القصة في الأدب، وأدرك من عناصرها الأساسية الخيال الذي يعتمد على التصوير، وأنه كلما ارتقى خيالها ونأى عن الواقع كثر

(٤) انظر نقد كتاب (الفن القصصي في القرآن) - للأستاذ محمد الخضر حسين، ٩٤ . دار المعارف، بدون .

الشوق إليها، ورغبت النفس فيها، واستمتعت بقراءتها . ثم قاس القصص القرآني على القصة الأدبية .

وليس القرآن كذلك فإنه تنزيل من عليم حكيم، ولا يرد في أخباره إلا ما يكون موافقاً للواقع، وإذا كان الفضلاء من الناس يتورعون من أن يقولوا زوراً ويعدون من أقبل الرذائل المزرية بالإنسانية، فكيف يسوغ العاقل أن يلصق الزور بكلام ذي العزة والجلال ؟ والله تعالى هو الحق: ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ﴾ (الحج: ٦٢) .

وأرسل رسوله بالحق: ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ﴾ (فاطر: ٢٤) .
 ﴿ والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق ﴾ (فاطر: ٣١) .
 ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ﴾ (النساء: ١٧٠) .
 ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ (المائدة: ٤٨) .
 ﴿ والذي أنزل إليك من ربك الحق ﴾ (الرعد: ١) .
 وما قصه الله تعالى في القرآن هو الحق: ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ (الكهف: ١٣) .

﴿ نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق ﴾ (القصص: ٣) (٥) .

نشأة القصة العربية (٦):

هناك من أعاد القصة إلى أصول قديمة قدم الحضارات السامية كالبابلية والسومرية والكلدانية والآشورية وحتى الفرعونية عبر مخطوطات وكتابات كثيرة عثر عليها .

وأنا لا أحبذ هذه الفكرة ولا اعتبرها صحيحة البتة لتأريخ القصة العربية وبداية

(٥) انظر مباحث في علوم القرآن للقطان، ٣١٩-٣٢١ ط٧، الناشر مكتبة وهبه .

(٦) انظر: فن القصة، د/ محمد يوسف نجم، دار الشروق، عمان الطبعة الأولى ١٩٩٦، ص ٩ .

لظهورها لأن المتعارف عليه على أنه عربي هو ما نقل وقص وتداول وكتب باللغة العربية التي نعرفها .

وكون العرب في بداية ظهور لسانهم واستخدامهم له وتدوينه في أشعارهم ابتداء من العصر الجاهلي فانا أحب اعتماد هذا العصر كبداية لظهور وتاريخ الأدب العربي شعرا كان أم نثرا . (قد لا يتفق البعض معي لاعتماده على دراسات حولها وقد أصيب فيما اذكر وقد يتفق بالصدفة مع ما نشر حولها .

وأحبذ كثيرا أن تكون فكرة القص وأدب القصة أو الرواية موجودة ومتداولة لديهم حتى وإن كانت منقولة أو مكتوبة شعرا (على عادة العرب في تداول وحفظ ونقل كتابتهم بالتواتر قبل النسخ وظهور المعلقات .

وأنا اعتبر أن الرسول محمداً ﷺ هو رائد وأب القصة العربية بلا منازع، وبأن القرآن الكريم هو أول كتاب يجمع بين صفحاته أروع وأجمل وأكمل ما كتب من القصص في اللغة العربية على الإطلاق . ولذا لن يأتي بمثله أحد رغم أن باب التحدي لازال مفتوحا وكون العرب يجهلون القصة والرواية المكتوبة كنص اعتبروا القرآن في أول ظهوره شعرا وحاول المفسدون منهم العبث بآياته وقصصه بتقليده سجعا وفشلوا !

بعدها ومع ازدهار الحضارة العربية بفضل الإسلام وانتشارها واحتكاكها بالحضارات المجاورة لها بدأت الحكاية والقصة والرواية الشعبية تأخذ لها طريقا للظهور عبر النقل أحيانا ككليلة ودمنة وألف ليلة وليلة أو التأليف مثل "التبر المسبوك" للغزالي أو "سراج الملوك" للطرطوشي أو المقامات لأبي البديع الهمداني (وهذا لا يعني بتاتا بأن القصة لم تكن موجودة قبلا بل كانت محكية ومتداولة شعرا أو نثرا أو نصوصا تعتمد السجع وتناسق اللحن وتوافق نهايات الجمل .

والى زمن قريب كانت التربية عبر القص تعتمد في أساسها على الشعور وربما لازالت موجودة في بعض البلاد العربية .

وهكذا كانت القصة تلهب الخيال وتثير المشاعر ولا تتركك إلا وأنت غارق بأحلامك لا تستفيق منها إلا استجابة لدمعة دافعة تسخن وجنتيك أو ابتسامة كبيرة تظهر ناجزيك .!؟

أما إذا أحببنا أن نعود إلى القصة كقصة، نوع أدبي مستقل عن المقامة أو الأمثال أو الرواية أو الشعر فتاريخها قريب جدا لا يتعدى المائة عام الماضية وحالتها كحال المسرح - رغم قدمه - لم يعترف به ويؤرخ ككتابة مستقلة عن القصة والرواية إلا منذ خمسين عاما وإذا ما نظرت في كتب العقاد أو توفيق الحكيم فلا يذكر القص أو المسرح إلا بعبارات متلازمة مع رواية مسرحية - قصة شعرية، وهو حال القصة القصيرة والقصيرة جدا - العربية منها - فهي حديثه العهد جدا ولا زالت .

من هنا جاءت هذه الدراسة التي تتكون من سبعة مباحث وخاتمة، ويشتمل كل مبحث على مطالب . أرجو أن أكون قد وفقت في عرضها، وبالله التوفيق .

* * *

المبحث الأول

تعريف القصة

والتعريفات من الأمور اللازمة لكل العلوم، ولا يمكن إغفالها أو القناعة بما سبق إقراره فيها، خاصة إذا كانت الموضوعات المراد درسها وبحثها يختلف النظر فيها باختلاف التوجهات، والمعتقدات، وأساليب النظر والبحث، هذا فضلا عن العلاقة البينة بالذات في موضوعنا هذا بين القصة المقدسة التي هي أجل من المعارضة وبين القصة الإنسانية التي لا تخلو من القيل والقال، والمعارضة والجدال، وليس من

المستساغ عقلا أن نقول بأن التعريفات سبق أن أسست ورسخت وقيل فيها الكثير، لأن التعاريف تتعدد للمعرف الواحد، وتتضح وجهة الباحث بتعيين مراده أولا من هذه التعريفات المتعددة، وتحت هذا المبحث مطلبان.

المطلب الأول: القصة في اللغة وتحليلها:

القصّ: تتبع الأثر. يقال: قصصتُ أثره: أي تتبعته، والقصص مصدر، قال تعالى: ﴿فارتدا على أثارهما قصصا﴾ (الكهف: ٦٤) أي رجعا يقصان الأثر الذي جاء به^(٧).

وللقصص معان أخرى متقاربة، فهو يأتي بمعنى (الخبر)، (والحديث) و(الجملة من الكلام)

والقرآن قد استعمل المعنى اللغوي للقصص، قال على لسان أم موسى ﴿وقالت لأخته قصيه﴾^(٨) فتصور هذه الآية أم موسى عليه السلام وهي تقول لابنتها أخت موسى عليه السلام بعد أن ألفت به في اليم خوفا عليه من بطش فرعون وتنفيذا لأمر الله تعالى ووحيه: "قصيه" بمعنى اتبعي أثره وهو في التابوت تجري به مياه النهر وتتقاذفه أمواجه وتعترض سبيله كل ما يمكن أن يطفو على سطح النهر. وهكذا نجد لفظة "قصيه" لفظة موحية ومعبرة وتحمل في بنيتها الدلالية ما يدل على الحركة - المشي والسير وتتبع الأثر - فكأنني بشريط سينمائي يصور التابوت وهو يمشي مع تيار الماء وسط اليم وبموازاته أخت موسى تمشي مع تيار التابوت وتيار الماء معا على الضفة.

(٧) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ج ٧/ ٧٣، مادة (قصص)، الناشر: دار صادر - بيروت الطبعة الأولى، المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين ابن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ص: (١٠٤).

(٨) (القصص: ١١).

إنها تقتضي الأثر وتتبع الحركة وتتأثر بكل التقلبات وتنفعل بكل التموجات وتتخيل كل الاحتمالات وتعيش في قلب الحدث.. وكأنها هي التي في الثابت تقتضي أثر نفسها مع اقتفاء أثر أخيها الموجود حقيقة في الثابت.. وكل هذه العمليات تعتبر من وظائف القصة.

فكان لفظة "قصيه" تحمل هذه المعاني الوظيفية بالذات، وبهذا يتبين لنا وجه القرب بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للقصة كما سنشير إليه.

وفي الآية القرآنية الأخرى التي تحكي عن رحلة موسى عليه السلام إلى الرجل الصالح الذي أتاه الله من لدنه علما جاء في بعض آيات القصة قوله تعالى: ﴿فارتدا على آثارهما قصصا﴾^(٩) أي رجع موسى عليه السلام وفتاه الذي رافقه في سفره بحثا من الرجل الصالح الذي أتاه الله من لدنه علما.. رجعا يقتفیان آثارهما التي تدل على أنهما مرا من تلك الأمكنة من قبل حتى يصلا مكانا تركاه وقد قضيا فيه زمنا نسيا فيه حوتهما وكانت هذه هي العلامة الدالة على المكان الذي يقصدانه ويريدان الوصول إليه ليجدا مبتغاهما وليحققا هدفهما.

فاللفظة بين "قصيه" و"قصصا" تأتي للدلالة على الاقتفاء وإتباع الأثر كما يشير الأصل الدلالي المعجمي. وهكذا "قصيه" اتبعي أثره من بداية القصة إلى "قصصا" الارتداد وإتباع الأثر في النهاية/البداية^(١٠).

وجاءت أيضا دلالة "القص" تشير إلى معنى التلاوة والقراءة في مثل قوله تعالى: ﴿يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي﴾^(١١) أي يتلون عليكم ويقرؤون؛ لأن فعل القص في هذا النص ارتبط بلفظة "آياتي" التي ترتبط

(٩) (الكهف: ٦٤).

(١٠) انظر: دراسات في القصص القرآني، د. محمد السيد جبريل، د. عبد الرحمن عويس / ١٣، ط: أولى، مؤسسة الإسراء، القاهرة، ٢٠٠٧.

(١١) (الأعراف: ٣٥).

في أصلها التداولي بالتلاوة والقراءة .. مما أفرغ لفظة القص من محتواها الحكائي والروائي .. ويظهر هذا الأمر جلياً وأكثر وضوحاً في قوله تعالى: ﴿ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم﴾^(١٢) وفي قوله تعالى: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا﴾^(١٣)، وكذلك يأتي المعنى نفسه للفظه في مثل قوله سبحانه: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾^(١٤) أي يتلون عليكم ويقرؤون، ولذلك نجد لفظة "نتلو" ترد في بعض الآيات بدل "نقص" كما في قوله تعالى: ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون﴾^(١٥) أي نقص عليك نبأهم على غرار قوله تعالى: ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق﴾ (الكهف: ١٣) .. والآيات في هذا المعنى كثيرة كلها تأخذ هذا الشكل.

كما أتت لفظة القص بمعنى الوحي في مثل قوله عز وجل: ﴿إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين﴾ (الأنعام: ٥٧) فالقص هنا جاء بمبنى لا يرتبط معناه بحكي الأحداث والوقائع والشخوص والصراع والحوار وما شاكل ذلك، بقدر ما يرتبط بأحكام معينة وقضايا محددة، وبذلك فهي للدلالة حسب السياق، على الوحي أو على نوع من أنواع الوحي.

فالسباق يبين أن هناك خلافاً عقيدياً وجدالاً بين الرسول ﷺ وقومه جاءت فيه الآية لتبين أن الله سبحانه ما أوحى به لرسوله ﷺ هو الحق وأنه هو سبحانه وتعالى خير الفاصلين فيما يجري من خلاف وفيما يقع من لبس بين الحق والباطل عند كثير من الناس.

(١٢) (الزمر: ٧٤).

(١٣) (البقرة: ١٥١).

(١٤) (الأنعام: ١٣٥).

(١٥) (الفصص: ٣).

وبعد تفصيل قصة نوح عليه السلام في سورة هود تأتي الآية في الختام لتؤكد هذا المعنى الذي أشرنا إليه آنفاً قائلة: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ (هود: ٤٩) .. نوحيها إليك .. هكذا تأتي إذن بمعنى نقصها عليك عن طريق الوحي إليك ..

كما جاءت في نصوص قرآنية أخرى للدلالة على البيان والتبيين يقول تعالى: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل ..﴾ (النحل: ١١٨) .. وأيضاً جاءت بمعنى التوضيح وإبراز القول الفصل في مسائل الخلاف أو الاختلاف، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾ (النمل: ٧٦) وما يزيد الأمر وضوحاً هو فهم هذه الآية في إطار السياق الذي جاءت به آية أخرى من الذكر الحكيم: ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ (النحل: ٦٤) ..

وكذلك تأتي بمعنى الحكيم والإنباء والرواية والإخبار وسرد الأحداث وتسجيل ما مر في غابر الأزمان وتوثيق ما عاشته الأقوام ورصد ما أتت به عليهم الأيام .. وقد وردت بهذه المعاني في كثير من الآيات التي جاءت تحمل إحدى صيغ اللفظة منها قوله سبحانه: ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ (الأعراف: ١٧٦)، وقوله تعالى: ﴿فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف﴾ (القصص: ٢٥) وقوله عز وجل: ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ (غافر: ٧٨) وقوله سبحانه وتعالى: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ (يوسف: ٣) .. وقوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام حين قال لابنه يوسف عليه السلام بعد أن قص عليه الرؤيا التي رأى: ﴿يا أبت إني رأيت أحد عشر

كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك... ﴿يوسف: ١٠٠﴾ فالحق في هذه الآيات الكريمات أتى يحمل معنى المشافهة بسرد الأحداث والوقائع التي تقوم بها شخوص في إطار ظروف زمانية ومكانية معينة، مصورة بذلك بداية ونهاية من واقع معيش ترك بصماته على كتاب الحياة..

ويمكن لنا أن نلاحظ الدقة اللغوية للقرآن في استعماله لعبارة الخبر والنبأ بمعنى التحدث عن الماضي فيما يتعلق بالقصص فنجد قد فرق بينهما في المجال الذي استعمل فيه، ومن هذه التفرقة نتبين دقة ألفظ القرآن الكريم؛ جرياً على ما قام عليه نظمه من دقة وإحكام وإعجاز؛ فقد استعمل النبأ عن الأحداث البعيدة زماناً أو مكاناً في حين استعمل الخبر في الكشف عن الوقائع قريبة العهد والوقوع، أو التي لا تزال مشاهدتها قائمة للعيان^(١٦)؛ قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾^(١٧)، نجد أن القصص القرآني من قبيل الأنباء أو الأخبار التي بعد الزمن بها، واندثرت أو كادت تندثر؛ ولهذا سماها القرآن "أنباء الغيب"، وعندما نمضي بالنظر في القصص القرآني نرى أنه يجيء بمادته من الماضي البعيد، دون أن يكون فيه شيء من واقع الحال أو من متوقعات المستقبل^(١٨).

المطلب الثاني: القصة اصطلاحاً:

والقصة في الاصطلاح على ما يشير إليه ابن منظور: تدور على نقل الأحوال والأخبار سواء كانت منقولة مشافهة، أو مكتوبة^(١٩).

(١٦) انظر: القصص القرآني: عبد الكريم خطيب، دار الفكر العربي، ص ٤٤.

(١٧) الكهف ١٣.

(١٨) الفن القصصي: محمد أحمد خلف الله، مكتبة النهضة، ص ٧٨.

(١٩) لسان العرب ٧/٧٣.

أما القصص في القرآن: فهو "أخباره عن أحوال الأمم الماضية والأنبياء السابقة والكائنات الواقعة.

وقصة قوم كذا معناها: أمرهم وشأنهم وحالهم التي كانوا عليها" (٢٠).

المبحث الثاني عناصر القصة القرآنية

وتحتها أربعة مطالب:

القصة القرآنية: مجموعة من الأحداث متتالية الوقوع تأخذ في تسلسلها المتتابع معنى القص، وبما أنها كذلك فإن عناصرها لا بد وأنها تشتمل على ما يشتمل عليه الواقع حيث إن القصة القرآنية تروي أحداثا حصلت في الواقع ولا تعتمد على الخيال ولا الكذب.

ومن هنا كانت عناصرها هي الزمان والمكان والأشخاص والأحداث، وكل هذه العناصر متغلغلة في نسيج القصة، وجزء أصيل ومتأصل فيها، ولا تنفك عنها وعن مفهومها، ولا تصور لأحداث القصة بدونها.

غير أن النقطة المحورية في القصة القرآنية ومركزها الأساسي هو الحدث وحده، مجردا عن المكان والزمان وعن نسبته إلى فاعله ومحدثه، وهو أمر فرضته طبيعة القصة القرآنية، وحتمته وظيفتها الفريدة في سياق المنهج القرآني العام. وضمن العقيدة في مفهومها المعرفي.

أما العناصر الأخرى فتغدو بعد تجردها التام معاني هي بالفعل جزء مفهوم من الحدث، وملحوظة فيه على وجه التفصيل، ولا يراد بها إلا خدمة الحدث وإظهاره

(٢٠) منهج الفرقان في علوم القرآن، ١٧٦/٢، الشيخ محمد علي سلامة، مطبعة شبرا، ١٩٧٣م.

لوجود، ولكنها أحياناً ولغرض ما نرى بعض القصص يبرز ويعظم من دور هذا العنصر أو ذاك، ولكي تكتمل الصورة لدينا نوضح عناصر القصة القرآنية كالتالي:

المطلب الأول: الزمان:

وزمان الحدث دائماً سابق لزمان الحكاية والسرد، والقرآن يبين أن سرده لقصص السابقين إنما هو حكاية لما مضى، فهو محاولة تمثيلية لبيان ما حصل في السابق، قال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨)﴾ (الزُخْرَف). أي الذين نفذت أفعالهم في وقت سابق، وبقيت أخبارهم تحكي عما فعلوه، وتقص ما أنجزوه من أعمال.

وفي القصة القرآنية ورد الزمان مطلقاً بلا قيد، اللهم إلا قيد الماضي وحده، وحتى هذا القيد أبهم على نحو فريد جعل الماضي كله ماضياً قرب فيه البعد الزماني إلى حد بات معه الزمان لا هو زمان موغل في القدم، ولا هو زمان حديث في وقت الإعلام عنه، بل هو زمان مرت فيه أحداث سابقة على كل من أخبر أو أعلن عنها.

وهنا يبرز التفرد للقصص القرآني حيث ألغت القصة الحاجز الزماني بعد الحدث الماضي وبين الوقت الذي يخبر فيه بالحدث، بحيث يتلقاه المقصود عليه وكأنه حدث سابق على وجوده، وسبقه قريب يثير انتباهه بشدة إلى شيء عظيم القدر وهنا تصبح الوقائع لقربها منه وقائع يمكن الشعور بها، وإن استحال عليه رؤيتها رؤيا العين.

ونظرة متأنية على الماضي كما أضمر في القصة القرآنية التي ترينا كيف أن الماضي هو ماضي لمن سمع بوقائعها، لا بوصفه ماضياً للأحداث والوقائع لأن الماضي قد جُرد من صبغته الزمانية وتحول إلى زمان فيه استمرارية تجري حية في حاضر كل متلقي القصة القرآنية. ولعل هذا يفسر لنا ما لوحظ من كون كل وقائع القصص

لم تنسب إلى زمان بعينه، وإنما نسبت إلى الماضي وحده وذلك حتى يكون الماضي في خدمة الحدث، فإذا قيد الزمن أو حدد تحديداً يفقده عموميته فَقَدْ الحدث قيمته كمرتكز جوهري للقصّة، ومن ثم تفقد القصّة أهم دعامة من دعائمها.

أقسام الزمن في القصّة:

تنقسم الأزمنة في القصّة إلى ثلاثة أنواع هي:

(١) زمن القصّة « الحدث » وهو الزمن الذي يستهلكه الحدث لوقوعه فهو أكثر مطاطية وحركة.

(٢) زمن السرد « الحكاية » وهو زمن كتابة القصّة أو زمن الخطاب أو زمن نقل القصّة.

(٣) الزمن النفسي وهو الإحساس الذاتي والشعور بمرور الزمن من عدمه وهو زمن متعلق بالإنسان نفسه يطبق في القصّة على أبطالها ويتم التعبير عن هذا الزمن من داخل الشخصية « على لسانها » أو من خارج الشخصيات على لسان السارد « الخطاب ».. وتتوالد تقنيات معينة من تداخل هذه الأزمنة مع بعضها البعض، ويمكن لنا أن نلاحظ هذا الزمن النفسي في قصة يوسف عليه السلام، وهي من القصص التي يبرز فيها كل عناصر القصّة، حيث يقول تعالى:

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (يوسف / ١٥)، " وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِأَمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) "، " وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) "، " وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى

عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ (٢١).

المطلب الثاني - المكان:

فالمكان مثلاً كما يجب ضمن الأحداث: هو الموضوع الحاوي لكل حدث ومستقره، فهو له أشبه شيء بالوعاء، ومن البديهي أن لا يتصور حدث إنساني بلا موضع ومستقر، إن لم يكن فعلياً فعلى الأقل ذهنياً، لأن المكان يقف وراء كل حدث، وخلف كل واقعة، وغن لم يذكر أو يتصور إذ لا يعقل حدث إلا وهو جار في بعد يحويه، وموضع يشغله، ومن هنا جاءت أهمية المكان للحدث كعنصر لا بد منه. بيد أن المكان لا يؤثر في الحدث تأثير الإيجاد، إذ هو كما رأينا منفصل عن الحدث، وجريان الأحداث في تدفقها الزماني يسقط المكان، وستقل الحدث وحده بالوجود الفعلي والذهني على حد سواء.

ولم يرد في القرآن ذكر لمكان ما يرفعه فوق مستوى الحدث، ولم يلتفت إليه التفاتاً يبعده عن دائرة العمومية والإطلاق ويقربه إلى خصوصية التعيين، وإذا ذكر بالتعيين فإنما يذكر لدواعي المعرفة، ولضرورة فرضتها أحداث القصة بحيث لا يتصور الحدث بدونه، وذلك لأن المعنى بالذكر هو الحدث وحده. فمثلاً يقول الله تعالى في قصة موسى عليه السلام:

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ (القصص).

والمدينة هنا هي مدينة فرعون، وقد دخلها موسى بالفعل، وهي أحد المواقع التي جرت فيها أحداث القصة، ولذلك خُصَّت بالذكر تخصيصاً مبهماً، إذ تصور

(٢١) انظر: دراسات في القصص القرآني: ص: ١٦، وما بعدها.

الأحداث متوقف عليه، ومرهونة بها، ولما لم تذكر لتعذر تتابع الأحداث في مجراها الطبيعي.

أما المواضع التي خُصَّت بالذكر كما في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢١). (الأحقاف). وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٨٠). (الحجر). وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (١٢). (طه). فإما بقصد الشرح والإبانة، أو لإقامة الحجة والشهادة على قوم بعينهم، أو لأنها مواضع لوقائع جرت، أو لأحداث مضت ارتبطت بأماكنها، فوردت وأثبتت لمقتضيات ولضرورة ودواع ليس من بينها الأحداث المخصوصة، وإن كان القرآن يركز أحيانا على عنصر المكان يجعله مفتتح القصة، ومحورا تدور حوله القصة في بعض محاورها، كما هو الحال في قصة موسى مع العبد الصالح، يقول تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنَسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (الكهف / ٦٠ : ٦٤).

المطلب الثالث: الأشخاص:

وهم الأفراد الذين تدور حولهم أحداث القصة، وأحيانا يبرز القصص القرآني هذا العنصر، كما في قصة أصحاب الجنة في سورة القلم، فقد ركزت القصة على ما فعله هؤلاء وما دار بينهم من حوار وما بيتوه ممن منع المساكين حقوقهم، ثم

تلاومهم لما رأوا ما حاق بجنتهم^(٢٢)، يقول تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَشْنُونَ (١٨) فُطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنْ اغْدُوا عَلَيَّ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ (٢٤) وَغَدُوا عَلَيَّ حَرْدٌ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ (القلم/١٧: ٣٢).

المطلب الرابع: الأحداث:

وهو الركن الأهم في القصة إذ هو المراد بالحكاية ومنه تستنبط العبر وبه تتحقق أغراض سرد القصة، ويمكن أن نلاحظ بروزه في قصة إبراهيم التي تنهم كل الاهتمام بتوالي هذه الأحداث من دعوة إبراهيم قومه للإيمان، وما رد عليه به قومه، ثم تهديده بتكسير الأصنام، وتنفيذه ذلك، وغضب القوم لذلك، ثم محاورته إياهم بعد ذلك، ثم ما هموا بفعله به، ثم إنجاء الله تعالى له، يقول تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ

(٢٢) دراسات في القصص القرآني/ ٢٠.

تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨)
 قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ
 يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١)
 قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا
 فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ
 الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥)
 قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أَفْ لَكُمْ وَلِمَا
 تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿ (الأنبياء: ٥١):
 . (٦٩)

المبحث الثالث

أهداف القصة في القرآن الكريم

وتحت فقرات:

إن الذي يتدبر القرآن الكريم، يرى جانبا كبيرا من آياته وسوره، قد اشتمل على
 قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعلى قصص غيرهم من الأخيار والأشرار.
 يرى ذلك بصورة أكثر تفصيلا في السور المكية، التي كان نزولها قبل الهجرة،
 لأنها في الأعم والأغلب اهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى وعلى صدق
 الرسول ﷺ فيما يبلغه عن ربه، وعلى أن هذا القرآن من عند الله تعالى وعلى أن
 البعث وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب حق وصدق. وهذه الأدلة ساقتها السور
 المكية تارة عن طريق قصص الأنبياء مع أقوامهم، وتارة عن غير ذلك من الطرق
 الأخرى، كالنظر في ملكوت السماوات والأرض، وفي خلق الإنسان وغيره من

سائر المخلوقات . أما السور المدنية وهي التي كان نزولها بعد الهجرة، فهي في الأعم والأغلب اهتمت بعد أن رسخت العقيدة السليمة في قلوب المؤمنين، بتفصيل أحكام الشريعة العملية، كالعبادات، والمعاملات، والحدود، والعلاقات الاجتماعية، وتنظيم شئون الدولة الإسلامية داخليا وخارجيا .. فمثلا من السور المكية التي اشتمل معظمها، أو جانب كبير منها، على قصص الأنبياء، سور: الأعراف، ويونس، وهود، ويوسف، والشعراء، والقصص، والصفات .. الخ.

والقصة في كل زمان ومكان لها أثرها العميق في النفوس، لما فيها من عنصر التشويق، وجوانب الاعتبار والاتعاظ .. ولا تزال على رأس الوسائل التي يدخل منها الهداة والمصلحون والقادة، إلى قلوب الناس وعقولهم، لكي يسلكوا الطريق القويم، ويعتنقوا الفضائل، ويجتنبوا الرذائل، ويسلموا وجوههم لله الواحد القهار ومن هنا ساق ما ساق من قصص يمتاز بسمو الغاية، وشريف المقصد، وصدق الكلمة والموضوع، وتحري الحقيقة بحيث لا تشوبها شائبة من الوهم أو الخيال أو مخالفة الواقع. كما أن من مميزات قصص القرآن: اشتماله عن طرق شتى في التربية والتهذيب، تارة عن طريق الحوار، وأحيانا عن طريق سلوك طريق الحكمة والاعتبار، وطورا عن طريق التخويف والإنذار نرى ذلك على سبيل المثال في قوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ۚ ۝١٠٠ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۚ ۝١٠١ وَكَذَٰلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۚ ۝١٠٢ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾

(سورة هود: ١٠٠-١٠٣).

ولذلك اعتبر العلماء القصص القرآني قسما من أقسام القرآن، يقول العلامة الألوسي في مفتتح تفسيره في طي تفسير سورة الفاتحة: "إنها مشتملة على أربعة أنواع من العلوم التي هي مناط الدين،

الأول: علم الأصول، ومقاصده معرفة الله تعالى وصفاته، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿رب العالمين * الرحمن الرحيم﴾، ومعرفة النبوات، وهي المرادة بقوله (أنعمت عليهم)، والمعاد الموحى إليه بقوله (مالك يوم الدين)...

الثاني: علم الفروع... الثالث: علم ما به يحصل الكمال، وهو علم الأخلاق...

الرابع: علم القصص والإخبار عن الأمم السالفة: السعداء والأشقياء، وما يتصل بها من الوعد والوعيد، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ (٢٣).

وللقصة في القرآن الكريم أهداف سامية، ومقاصد عالية، وحكم متعددة منها:

١ - الهدف الأكبر والأعظم هو إعجاز القرآن وإثبات صدق النبي ﷺ في رسالته؛ لأن دعوة الأنبياء واحدة ومنهجهم واحد، وبالتالي فإن النبي ﷺ كما قال جل شأنه: ﴿قل ما كنتُ بدعاً من الرسل﴾ (سورة الاحقاف: ٩) وقال أيضاً: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ (سورة النمل: ٤٣).

ومن وجه آخر؛ حيث ينبئ النبي ﷺ بأخبار الأمم السابقة والقرون الساحقة مما لا يعلمه أحد من كتاب العرب فضلاً عن أمي مثله (ﷺ) وهذا ما أشار إليه الحق سبحانه وتعالى حين قال: - وهو يعرض قصص الأنبياء الواردة في (سورة هود - عليه السلام - : ١١) - ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها

(٢٣) روح المعاني، شهاب الدين الألوسي: ١/ ٣٦، ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت - بدون.

أنت ولا قومك من قبل هذا ﴿٤٤﴾، وأيضاً حين قال سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه ﷺ
 في (سورة القصص: ٤٤-٤٦) بعد عرض شيق وطويل لنبا موسى وفرعون:
 ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ
 الشَّاهِدِينَ﴾ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي
 أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ
 إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ
 يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾.

وقد بحث مشركو مكة عن وسيلة يتوصلون بها إلى تكذيب النبي - ﷺ -
 فهداهم اليهود إلى سؤاله عن قصص الأمم السابقة، ولكن الله جعل إعلام النبي بهذا
 القصص دليل صدق على نبوته، كما حصل في قصة أصحاب الكهف " عن ابن
 عباس: أن قريشاً بعثوا إلى أحنبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها
 رسول الله ﷺ، فبعثوا إليهم أن يسأله عن خبر هؤلاء، وعن خبر ذي القرنين، وعن
 الروح" (٢٤).

٢- بيان أن الله ينصر أنبياءه ورسله في النهاية، ويهلك الكافرين المكذبين، مما
 يثبت قلب النبي ويقوي نفوس المؤمنين ويزجر الضالين الملحدين قال تعالى: ﴿قُلْ
 هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ
 الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى
 أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ
 خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ
 كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ
 (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ

(٢٤) تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير ج٣/ ٧٤، ط: مكتبة دار التراث، القاهرة، بدون.

تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٧﴾ (يوسف: ١١١).

٣- بث المعاني الدينية الواضحة و ترسيخ قواعد الدين، بما يقع في القصص من حوار ومواعظ وحجاج يصغي إليها السامع و يتابعها القارئ سواء كان مؤمناً أو كافراً لما في طبيعة القصص من إثارة و تشويق.

٤- وأهمها من جهة نظر القرآن نفسه تخفيف الضغط على النبي ﷺ؛ فهذا الضغط كان قوياً وعنيفاً، وكانت أسبابه واضحة جلية؛ من كيدٍ للنبي والقرآن والدعوة للإسلام، وهذا أثر بطريقة مباشرة في نفس النبي، ودفعه إلى أن يضيق صدره؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾، وقال أيضاً: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيِّنَاتٍ لِّلَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، لقد كان لما يقوله الكفار أثر بالغ في نفس النبي ونفس أتباعه وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ فإن كنت "يا محمد ﷺ" ﴿في شك مما أنزلنا إليك﴾ من القصص فرضاً ﴿فاسأل الذين يقرؤون الكتاب﴾ أي التوراة ﴿من قبلك﴾ فإنه ثابت عندهم يخبرونك بصدقه، وقد قال قتادة بن دعامة بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: "لا أشك ولا أسأل"، إن هذا الضغط لم يقف عند حده؛ بل تجاوز ذلك إلى ما هو أبعد مدى، قال الله تعالى:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾، وقال أيضاً: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾، ونجد أن القرآن صرح

بهذا الغرض وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ .
نسبين من هذه الآية أن الغرض هو التثبيت للنبي ﷺ وموعظة وذكرى للمؤمنين^(٢٥).

٥- الاعتبار والاتعاظ من خلال النظر في سنة الله النافذة في هذا الكون، فالعاقبة دائماً للمتقين، والبوار والخزي دائماً على الظالمين، وما أكثر الآيات التي تأمرنا بالسير في الأرض للنظر والإعتبار من عواقب وآثار الماضين، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (سورة يوسف: ١١١) ومعنى العبرة: هو التأمل والاتعاظ والإعتبار بأن نقيس أنفسنا على السابقين ممن قص الله علينا نبأهم بالحق، فنعلم أن سنة الله ماضية فينا كما خلت في الذين من قبلنا، إن خيراً فخير.. وإن شراً فشر.

٦- تصحيح العقائد الفاسدة وتثبيت العقائد الصحيحة - ومحورها أمران: الإيمان بالله وحده، والإيمان بالبعث بعد الموت -، وهذا ظاهر من خلال دعوات الرسل والأنبياء جميعاً لأقوامهم

٧- تقويم الخلق والسلوك الفردي والجماعي، وتحقيق خلافة الإنسان في الأرض، وهذا ظاهر من خلال معالجة كل نبي لصفة معينة في قومه عدا الكفر كان يسعى لإصلاحها؛ فالقصص يصورُ مثلاً شناعة ما كان عليه قوم لوط.. وما كان عليه أهل مدين.. وما كان عليه الطغاة والمفسدون من ظلم وجور ومنع للفقراء.

وتصورُ أيضاً شناعة الحسد الذي حمل أحد ابني آدم على قتل أخيه.. وشناعة طبائع اليهود... وفي جانب آخر تصور ما كان عليه الأنبياء والصالحون من صبر وعدل وعطاء.. وكيف حقق سيدنا سليمان عليه السلام وغيره الخلافة في الأرض

(٢٥) انظر: بحوث في قصص القرآن : عبد الحافظ عبد ربه، دار الكتاب اللبناني، ص ٨٩ .

على أساس من العدل والخلق والاستقامة ...

٨- ومن أغراض القصة بيان أن الدين كله موحد الأساس - فضلاً على أنه كله من عند إله واحد - وتبعاً لهذا كانت ترد قصص كثير من الأنبياء مجتمعة كذلك. مكررة فيها العقيدة الأساسية، وهي الإيمان بالله الواحد على نحو ما جاء في سورة "الأعراف": ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره...﴾ إلخ. ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾ ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره...﴾ إلخ، فهذا التوحيد لأساس العقيدة، يشترك فيه جميع الأنبياء في جميع الأديان، وترد قصصهم مجتمعة في هذا السياق. لتأكيد ذلك الغرض الخاص.

٩ - وكان من أغراض القصة بيان أن وسائل الأنبياء في الدعوة موحدة؛ وأن استقبال قومهم لهم متشابه - فضلاً على أن الدين من عند إله واحد، وأنه قائم على أساس واحد - وتبعاً لهذا كانت ترد قصص كثير من الأنبياء مجتمعة أيضاً، مكررة فيها طريقة الدعوة. على نحو ما جاء في سورة "هود".

﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه: إني لكم نذير مبين. ألا تعبدوا إلا الله. إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم. فقال الملأ الذين كفروا من قومه، ما نراك إلا بشراً مثلاً، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾... إلى أن يقول: ﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله﴾، وإلى أن يقولوا له: ﴿يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا، فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾... إلخ. ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها، فاستغفروه ثم توبوا إليه. إن ربي قريب مجيب. قالوا: يا صالح، قد كنت فينا مرجواً قبل هذا. أتنتهانا أن نعبد ما يعبد آبائنا،

وإننا لفي شكّ مما تدعوننا إليه مريب ﴿... إلخ﴾ (٢٦).

هذا ما يتعلق بأهداف القصص القرآني عموماً، أما إن أردنا تفصيلاً أكثر فإننا سنجد أنفسنا أمام بحر لا ساحل له ولا قرار، حيث إن المتدبر لقصص القرآن الكريم واجدٌ في كل قصة، بل في كل آية، وفي كل كلمة والتفاتة قرآنية .

ومن الأهداف والعبر والإشارات واللطائف .. ما تعجز عنه الألسن ولا تبلغ مداه الأفهام، وصدق الله العظيم إذ يقول مبيناً تلك الأهداف العظيمة من القصص : ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيءٍ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ (سورة يوسف : ١١١).

وتأملُ كيف جاء لفظ (عبرة) منكرًا ليفيد الشمول والعموم؛ ففي قصصهم عبرة عن كل شيء، وفي كل شيء من قصصهم عبرة .. ولكن من يستخرج تلك الدرر والجواهر؟! .. إلا من آتاه الله عقلاً نيراً وقلباً مبصراً .. ولذلك جعل العبرة في الآية السابقة قاصرة على "أولي الألباب" .. ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيدٌ﴾ (ق : ٣٧).

المبحث الرابع منهج القصص في القرآن الكريم

وتحتة مطلبان :

لما كانت القصة في القرآن تهدف إلى مقاصد دينية وإيمانية كانت طريقة القص في القرآن متميزة عن المؤلف في هذا الفن، لكي يتلاءم أسلوب عرض القصة مع

(٢٦) انظر: المنهج القويم إلى علوم القرآن الكريم، د. محمد السيد جبريل، ١/ ٢٨٢، وما بعدها، ط: منارات للإنتاج الفني والدراسات - الطبعة الأولى - القاهرة، ٢٠٠٧م.

الوفاء بحق الغرض الذي سبقت لأجله، ومن أبرز سمات منهج القصص في القرآن ما يلي :

المطلب الأول :

(١) أن القصة – في الأعم الأغلب – لا ترد في القرآن بتمامها دفعة واحدة، بل يقتصر على الجزء الذي يناسب الغرض الذي تساق القصة لأجله، كما يكتفي بالجملة من الآية أو شطر البيت من الشعر للاستشهاد به .

فقصة موسى مع فرعون في سورة غافر وردت في جو كأنه جو معركة، لأن فيها بيان الصراع بين الحق والباطل فتذكر السورة من القصة ما يلائم ذلك : محاولة قتل موسى و التفكير بقتل أبناء الذين آمنوا معه، ثم ظهور الرجل المؤمن من آل فرعون يكتنم إيمانه ينصر موسى و يدافع عنه و احتيال فرعون للتهرب من دلائل الحق و براهينه إلى أن تأتي نهايته بالهلاك و العذاب الأليم و بحفظ الله لهذا المؤمن الحكيم : ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ .

(٢) استخراج التوجيهات و العظات و الإعلان بها في ثنايا القصة و في ختامها مما توحى به القصة من العبر و الدروس . ففي قصة لقمان مثلاً :

﴿ وإذ قال لقمان لابنه و هو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ يأتي البيان القرآني بتعقيب على هذه الموعظة بقوله : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ﴾ .

فهذا بعد وصية لقمان الأولى ليس من كلام لقمان، بل هو من كلام الله تعالى يوجهه سبحانه لعباده لمناسبة وعظ لقمان، يحقق غرضين كبيرين :

الأول : التأكيد على وصية لقمان ﴿ لا تشرك بالله ﴾ ببيان أنه أعظم الحقوق، و أنه لا يجوز التساهل إزاء قضية الإيمان وتوحيد الله لأي اعتبار، ولو كان هو حق الوالدين البالغ غاية التقديس .

الثاني : تأكيد حق الوالدين ، و بيان أنه أجل حقوق العباد على الإنسان وأقدس واجبات الإنسان تجاه الإنسان لكنه مع ذلك لا يقاوم حق الله تعالى .

المطلب الثاني :

٣) التكرار :

والتكرار خاصة من خصائص أسلوب القرآن بصورة عامة ، وهو في طريقة عرض القرآن للقصة جزء من تلك الطريقة وهو قسمان :

الأول : تكرار القصة في القرآن :

إن إطلاق كلمة تكرار هنا فيها كثير من التسامح والتساهل ، فإن تعرض القرآن لما حدث مع نبي من الأنبياء مع قومه في أكثر من موضع ليس تكراراً بالمعنى الحقيقي ، إنما هو استشهاد بالقصة لأغراض متعددة ، لذلك لا نجد القصة تعاد كما هي ، وإنما يذكر الجزء المناسب للغرض والمقصد الذي اقتضى الاستشهاد بالقصة باستعراض سريع .

أما جسم القصة فلا يكرر إلا نادراً ولا استنباط دروس وعبر جديدة منه مما يجعله على الحقيقة غير مكرر .

وهكذا وردت قصة آدم في ست مواضع من القرآن تشير العبر حول خطر إتباع الهوى ومخالفة أمر الله ، وضعف الإنسان ، وتوبته وقبول توبته وهكذا .

كما تكررت قصة موسى ، مع فرعون ، ومع قومه ، ومع نبي الله شعيب في مدين وفي كل موضع عبرة وعظة وحكمة ودروس

الحكمة في عدم تكرار قصة يوسف في القرآن :

من سمات القصة القرآنية التكرار ؛ وهو أن تتكرر القصة في أكثر من موضع من القرآن ، كما في قصة موسى عليه السلام ، وقصة نوح عليه السلام وقصة عيسى

عليه السلام وغيرهم من الأنبياء، ولكن نجد أن قصة يوسف عليه السلام لم تتكرر في أي موضع من القرآن؛ فقد جاءت في موضع واحد.

وهنا السؤال نفسه: ما الحكمة في عدم تكرار قصة يوسف عليه السلام، وسوقها مساقاً واحداً في موضع واحد دون غيرها من القصص؟

والحكمة في عدم تكرارها كما يراها بعض علمائنا الأجلاء تتجلى فيما يلي: فيها من تشبيب لنسوة بيوسف عليه السلام، وتضمنها أخباراً عن حال امرأة ونسوة افتتن بأروع الناس جمالاً، وأرفعهم منالاً، فناسب عدم تكرار ما فيها من الإغضاء والستر عن ذلك؛ ولأنها اختصت بحصول الفرج بعد الشدة، بخلاف غيرها من القصص؛ فإن مآلها إلى الوبال كقصة نوح وهود وقوم صالح عليهم السلام وغيرهم؛ فلما اختصت بذلك اتفقت الدواعي على نقلها لخروجها عن سمات القصص.

وفي عدم تكرارها إشارة إلى عجز العرب، كأن النبي ﷺ قال لهم: إن كان من تلقاء نفسي تصديره على الفصاحة فافعلوا في قصة يوسف ما فعلت في قصص سائر الأنبياء^(٢٧)، وثمة أمر آخر وهو أن سورة يوسف نزلت بسبب طلب الصحابة أن يقص عليهم، فقد روي الواحدي والطبري يزيد أحدهما على الآخر عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: أنزل القرآن فتلاه رسول الله ﷺ على أصحابه زماناً، فقالوا - أي المسلمون بمكة - يا رسول الله لو قصصت علينا، فأنزل الله:

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(٢٨) فنزلت مبسوبة تامة ليحصل لهم مقصود القصص من

(٢٧) صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، ص ٥٢، بيروت، دار القرآن الكريم

(٢٨) يوسف ١-٣.

استيعاب القصة وترويح النفوس بها، والإحاطة بطرفيها، استخلاصاً لعبورها ودلالاتها .

وأقوى ما يجاب به أن قصص الأنبياء عليهم السلام إنما تكررت لأن المقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم وآذوهم؛ والمواقف التي يعيشها النبي تستدعي ذلك التكرير؛ ذلك لتكرير تكذيب الكفار لرسول الله ﷺ، فكلما كذبوا أنزلت قصة منكرة بحلول العذاب كما حل على المكذبين؛ ولهذا قال تعالى :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢٩).

وقال أيضاً :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ (٣٠) وقصة يوسف لم يقصد منها ذلك (٣١).

الثاني: تكرار العبارات في القرآن

هذا القسم من التكرار يبرز بعض خصائص أسلوب القرآن و أسرار بلاغته المعجزة فتارة يكرر الجملة أو العبارة دون تغيير فيها لما في ذلك من التأكيد أو التهويل أو التصوير، وكل هذا له أثر عظيم في تعميق المعنى في النفس وصدعها عما تصر عليه و يظهر هذا واضحا في سورة الرحمن حيث تكرر كثيرا قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴾ .

(٢٩) الانفال ٣٨ .

(٣٠) الانعام ٦ .

(٣١) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، ٢-١٨٥، ط٢، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٢ م.

وتارة يكون التكرار مع اختلاف في نظم الجملة، أو إيجاز أو إطئاب أو نحو ذلك، وذلك يبرز سر من أسرار إعجاز القرآن، وهو التعبير عن المعنى الواحد بأكثر من أسلوب دون أن ينال تكرار المعنى من سمو الأسلوب وإعجازه بينما لا يخلو كلام البشر من تفاوت بين الأسلوبين .

وللتكرار في القرآن فوائد وحكم، فهو:

١ . إذا كرر القصة الواحدة فإنما هو لفائدة اشتمل عليها كل موضع خلت منها المواضع الأخرى، ومن أمثلة ذلك : عصا موسى عليه السلام؛ ففي (سورة طه : ٢٠) وصفها الحق سبحانه بأنها (حيةٌ تسعى) وفي (سورة الأعراف : ١٠٧) : (ثعبانٌ مبينٌ) وفي (سورة النمل : ١٠) (تهتز كأنها جان) (فهي حية باعتبار ضخامتها، وثعبان من حيث الخفة والنشاط وسرعة الحركة، وهي كأنها جان لكونها مرعبة) .

٢ . أن القصة المكررة تكون متجهة إلى هدف غير الهدف الذي تتجه إليه القصة في مواضع أخرى . . أو تتحدث من جهةٍ غير الجهة التي تعرضت إليها في مواضع أخرى . . وذلك نظراً لأن القرآن الكريم كتاب هداية وعبرة، وليس كتاب سرد تاريخي، ولا متعة أدبية فارغة فتكون القصة وسيلة لتحقيق تلك الأهداف المتعددة، متجهة نحو الغرض الذي سيقى من أجله .

٣ . المعالجة الحكيمة للنفوس بترسيخ العقيدة والمفاهيم الصحيحة في عقول المدعوين عن طريق التكرار في قالب القصص الواقعي الجذاب . . ولقد قرر علم النفس الحديث أن الشيء يرسخ في النفس بتكراره مراراً ما لا يرسخ بعرضه مرة واحدة أو مرتين . . لاسيما إن كان جديداً تنفر منه طبائع المشركين، وتشذ عنه عادات الجاهلين .

٤ . أن عرض الحادثة الواحدة في أساليب كثيرة متلونة وصور بيانية متنوعة،

دون أن يختل نظمه، أو يضطرب معناه، أو تنفك روعته، أو يضعف مستواه،
لهو مما يعجز عنه أبلغ الفصحاء... وفي هذا المعنى يقول الإمام الباقلاني رحمه الله
تعالى في كتابه إعجاز القرآن: (إن إعادة القصة الواحدة بالفاظ مختلفة تؤدي
معنى واحداً.. من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة وتبين البلاغة).

٥ . أن القرآن الكريم كما تحدّاهم بتنوع أساليبه الكثيرة.. تحداهم كذلك
بمحاكاة أسلوب واحد من أساليبه الكثيرة، ولون واحد من ألوانه العجيبة..
فعجزوا خاسئين.. وفي هذا المعنى يقول الإمام الباقلاني رحمه الله تعالى في كتابه
إعجاز القرآن: "إن إعادة ذكر القصة الواحدة بالفاظ مختلفة، تؤدي معنى واحداً
من الأمر الصعب، الذي تظهر به الفصاحة، وتبين به البلاغة وأعيد كثير من
القصص في مواضع (كثيرة) مختلفة، على ترتيبات / متفاوتة، ونبهوا بذلك
على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به ومكرراً" (٣٢).

- ولو ذهبنا لنضرب أمثلة لكل ما ذكرنا لطال بنا المقام وضاق عنه المقال. وكم
من سر بلاغي وحكمة ومغزى ودلالة تكمن وراء ظاهرة التكرار يحسبها الفارغون
فراغاً وما هو به (٣٣).

* * *

(٣٢) إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني/ ٨٧، ٨٨، ط: مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت - ط: رابعة.

المبحث الخامس خصائص القصص القرآني

وتحته فقرات:

من خصائص القصص القرآني على وجه العموم:

١- أنها تمتزج بموضوعات السورة التي ترد فيها امتزاجاً عضوياً لا مجال فيها للفصل بينها وبين غيرها من موضوعات السورة، بحيث لو حذفنا القصة من موقعها الوارد في السورة لاختل المعنى، لأن القصة تسهم في بيان مضمون النص وإيضاحه للقارئ، فلو حذفنا على سبيل المثال، قصة الغراب التي وردت أثناء الحديث عن قصة ابني آدم (قابيل وهابيل) لما استقام المعنى، لأن الغرض من ذكر الغرابين كان لحكمة إلهية لبيان حكمة دفن الموتى.

٢- وتمتاز القصة القرآنية بالبداية المشوقة كما في سورة الفيل: (الآيات: ١-٥) التي ابتدأت بسؤال مثير للاهتمام: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾. فالعرب يعرفون أن لعنة الله قد حلت بأصحاب الفيل ولكنهم بحاجة إلى مزيد من التفاصيل، ثم ذكرت نهاية القصة في بدايتها ﴿ألم يجعل كيدهم في تضليل﴾، وما زال الاستفهام قائماً. وكيف كان ذلك؟ فجاءت الإجابة في ثلاث آيات قصيرات مركّزات: ﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل﴾ * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول﴾ .. وهكذا وصفت واقعة الفيل أبلغ وصف، واختتمت بنهاية محكمة أشد الإحكام. وروعة هذه القصة القرآنية ليست في جِدَّة موضوعها فهي قصة معروفة عند العرب متداولة بينهم، ولكن روعتها تكمن في القالب الجديد التي عرضت من خلالها وفي أسلوبها الموجز البليغ، فهي تتحدث عن واقعة عظيمة قدمت مختصرة في خمس آيات

٣- ونجد كذلك التنوع في المقدمات، فسورة الكهف ابتدأت بذكر ملخص كامل لوقائعها، ولكن هل أشبع هذا الملخص الرغبة في معرفة تفاصيل هذه القصة؟ والإجابة: كلا،.. بدليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ﴾ (الكهف: ١٣)، فالقارئ والمستمع يتلهف لمعرفة سبب ذهاب الفتية إلى الكهف وما حدث لهم بعد ذلك.

وابتدأت سورة يوسف بالتشويق الذي بلغ أعلى درجات الإثارة، ففي مستهل القصة وصف الله - جلّت قدرته - القصص القرآني بأحسن القصص الذي يخرج الناس من غفلتهم، ثم انتقلت للحديث عن الرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام وهذا وحده كفيلاً بإثارة اهتمام القارئ والمستمع وشوقه لمعرفة تفسير تلك الرؤيا، ثم تحدثنا الآيات عن تحذير يعقوب عليه السلام لابنه من رواية تلك الرؤيا لإخوته. وبعد هذا الاستهلال الرائع للقصة تعود بنا الآيات إلى الماضي لتحدثنا عن تأمر إخوة يوسف عليه، ثم تتسلسل الآيات في رواية قصته كاملة منذ طفولته.

٤- كذلك تتميز بالمفاجأة فقد يكتم القرآن سر المفاجأة حتى تتكشف في نهاية القصة، وفي هذا تشويق للقارئ حتى يتم القصة ويعرف نهايتها كما في قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح. بينما في قصة ملكة سبا كان السر معروفاً للقارئ في كيفية مجيء العرش إلى سليمان عليه السلام بينما هي لم تكن تعرف، والدليل على ذلك قولها عندما رآته ﴿ كأنه هو ﴾ : لأنها لمست تشابهاً كبيراً بينه وبين قصرها، فسرد هذه الأحداث بهذه الطريقة فيه إثارة لاهتمام القارئ.

٥- ويمتاز القرآن الكريم بالدقة في اختيار الكلمات التي تحمل دلالات عميقة، وتعبّر عن أحداث كثيرة بأقل عدد من الكلمات كما في كلمة (تذودان) الواردة

في قوله تعالى: ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير﴾ (القصص: ٢٣)

فهذه الكلمة بينت أن الفتاتين كانتا تحبسان أغنامهما وتمنعانها من الاختلاط بأغنام الآخرين، حتى لا يدعي أحدهم أنها له، وهذا يعني أنهما كانتا تنتظران - لضعفهما - حتى يخف الزحام فتسقيان أغنامهما، وأن أغنامهما كانت تريد الذهاب إلى مورد الماء مع سائر الماشية فكانتا تمنعانها وهذه الكلمة ساهمت في تخيلنا للموقف وما فيه من حركة، والدوافع النفسية التي تدفعهما للتصرف بهذه الطريقة، كل ذلك لخصه القرآن الكريم في كلمة واحدة هي تذودان.

ولاشك أن هذه الكلمة تكشف عن نفسية هؤلاء القوم الذين كان يسيطر عليهم حب الذات، والحرص على مصالحهم الخاصة بهم دون الالتفات إلى حاجة الآخرين للماء، وعدم مراعاتهم لضعف هاتين الفتاتين وكبر سن والدتهما، ولذلك لفت هذا المشهد انتباه موسى عليه السلام وأثار تعجبه، ولما عرف القصة سقى لهما، وهذا يدل على حسن خلقه.

ونجد الأمر نفسه في الآيات (٢٤-٣٢) من سورة عبس ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شققا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم﴾ (عبس: ٢٤ - ٣٢) حيث جمعت هذه الآيات في سرد رائع كل ما يمكن أن ينبت على وجه الأرض من مزروعات تفيد الإنسان، والدواب التي سخرها الله سبحانه وتعالى للإنسان، فكلمة (الحب) تشمل القمح والشعير والذرة، أما القضب فهو كل ما يقضب من النبات كالقثاء وسائر البقول، والأب كل ما تنبته الأرض من عشب سواء ما يأكله الناس كالخصيد أو ما تأكله الدواب . ودلالة

العنب والزيتون والنخيل واضحة ومفهومة، أما الحقائق بما فيها من أشجار غليظة وغير غليظة، فالآيات السابقة تبين لنا كل ما يحتاجه الإنسان من طعام حياته وحياة دوابه، وكذلك الفاكهة على مختلف أنواعها وكذلك الراحة النفسية والتمتع بالجمال.

ومما يثبت أن القرآن الكريم يميل إلى اختيار الألفاظ القليلة ذات المعاني والدلالات الكثيرة، أننا نجد قصة قصيرة بليغة مركزة على قوم عاد في الآيات (١٨-٢٠) من سورة القمر ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر . إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ (القمر: ١٨ - ٢٠)، فهذه الآيات القصيرة تحدثنا عن تكذيب قوم عاد، والعذاب الذي حل بهم نتيجة لتكذيبهم والذي لم يبق على أحد جزاء وفاقا.

٦- الواقعية التاريخية: ونعني بها أن كل ما في قصص القرآن الكريم من أخبار الأولين هي حقائق تاريخية صادقة لا يصادمها عقل، ولا يخالفها نقل، وسواء في تلك المصدقية ما كان من أخبار الأنبياء مع أقوامهم، وما كان من قبيل المعجزات وخوارق العادات، كانفلاق البحر وكلام الهدهد والنملة، وليس فيها أي نوع من التناقض أو الاختراع، ولا أي شكل من أشكال الخيال أو التصوير المجرد عن الحقيقة، ولا أي صورة من صور الرمز أو الإشارة، يقول تعالى: ﴿ إن هذا لهُوَ القصص الحق ﴾ (آل عمران / ٦٢) (٣٤).

(٣٤) انظر: اللآلئ الحسان في علوم القرآن، د. موسى شاهين لاشين، ص ٣١١، وما بعدها، ط: مطبعة دار التأليف، ١٩٦٨ م.

المبحث السادس الخصائص الفنية للقصة القرآنية

وتحته فقرات :

أولاً : تنوع طريقة العرض :

وقد لاحظنا في قصص القرآن أربع طرائق مختلفة للابتداء في عرض القصة على النحو التالي :

١- مرة يذكر ملخصاً للقصة يسبقها، ثم يعرض التفاصيل بعد ذلك من بدئها إلى نهايتها . وذلك كطريقة أصحاب الكهف فالتلخيص في بدايتها كان مقدمة مشوقة للتفاصيل .

٢- ومرة تذكر عاقبة القصة و مغزاها، ثم تبدأ القصة من أولها و تسير بتفصيل خطواتها . ومن ذلك : قصة يوسف عليه السلام فهي تبدأ بالرؤيا يقصها يوسف على أبيه فينبئه أبوه بأن سيكون له شأن عظيم

ثم تسير القصة بعد ذلك، وكأنما هي تأويل للرؤيا و لما توقعه يعقوب من ورائها، حتى إذا تحققت أنهى القصة ولم يسر فيها كما سارت التوراة بعد هذا الختام الفني الدقيق .

٣- ومرة تذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص، و يكون في مفاجأتها الخاصة ما يغني . مثال ذلك : قصة مريم عند مولد عيسى عليه السلام : ومفاجأتها معروفة .. وكذلك قصة سليمان مع الهمدود والنمل وبلقيس .

٤- ومرة يحيل القصة تمثيلية . فيذكر فقط من الألفاظ ما ينبه إلى ابتداء العرض، ثم يدع القصة تتحدث عن نفسها بواسطة أبطالها . وذلك كالشهد الذي يصوره القرآن من : قصة إبراهيم وإسماعيل في بنائهما للكعبة المشرفة .

ثانيا: تنوع طريقة المفاجأة:

١- فمرة يكتم سر المفاجأة عن البطل و عن النظارة، حتى يكشف لهم معا في آن واحد .. مثال ذلك: قصة موسى مع العبد الصالح العالم في سورة الكهف.

٢- ومرة يكشف السر للنظارة، و يترك أبطال القصة عنه في عماية، وهؤلاء يتصرفون وهم جاهلون بالسر، و أولئك يشاهدون تصرفاتهم عالين .

و أغلب ما يكون ذبك في معرض السخرية، ليشترك النظارة فيها، منذ أول لحظة، حيث تتاح لهم السخرية من تصرفات الممثلين !

وقد شاهدنا مثلا من ذلك في قصة أصحاب الجنة ﴿ إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولا يستثنون ﴾ .

وبينما نحن نعلم هذا، كان أصحاب الجنة يجهلون: ﴿ فتنادوا مصبحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون ﴾ وقد ظللنا نحن النظارة نسخر منهم وهم يتنادون و يتخافتون، و الجنة خاوية كالصريم حتى انكشف لهم السر بعد أن سخرنا نحن منهم ﴿ قالوا إنا لضالون . بل نحن محرومون ﴾ وذلك جزاء من يحرم المساكين .

٣- ومرة يكشف بعض السر للنظارة وهو خاف على البطل في موضع وخاف على النظارة والبطل في موضع آخر في القصة الواحدة مثال: قصة عرش بلقيس فمفاجأة أنه صرح بمرد من قوارير ظلت خافية علينا وعلى بلقيس حتى فوجئنا بسرها معها .

٤- ومرة لا يكون هناك سر، بل تواجه المفاجأة البطل والنظارة في آن واحد فقد فوجئنا مع السيدة العذراء مريم بالمخاض .

ثالثا : الاعتناء بفن التصوير :

ويظهر واضحا في رسم الشخصيات، ف شخصية موسى عليه السلام تظهر بصورة ذلك النبي الواصل بخصيته فهو يواجه تهديد فرعون باللجوء إلى الله تعالى . وشخصية الرجل المؤمن تظهر من خلال الحوار شخصية الرجل الحكيم الذي يتبع المنطق المعقول مع إثارة عواطف قومه بالنداء المتكرر (يا قوم ... يا قوم ...) وشخصية فرعون تبدو بجبروتها وخبثها وإصرارها على الباطل ﴿ يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب ﴾ .

رابعا : حذف الثغرات بين الوقائع مما لا حاجة إليه لفهم القصة : وذلك بطريقة فنية عجيبة اخترق بها القرآن أستار القرون ليأتي متلائما مع العرض التمثيلي الذي نما في هذا العصر إلى أبدع أسلوب وصل إليه الأدب .

ومن تأمل سائر قصص القرآن تبين له ما عرضناه هنا وتذوق إعجاز أسلوب القرآن في القصة، وزاد إحساسه بذلك إذا لاحظ البون الهائل بين القصة في الأدب العربي وآداب العالم في عصر نزول القرآن وما تطور إليه فهمنا في العصر الحديث (٣٥) .

* * *

المبحث السابع بين القصة في القرآن والقصة الأدبية

وتحت مطالب :

بعد إيراد ما لزمنا إيرادا في شأن القصة القرآنية، نورد هنا مزيدا من المقارنة، فقد سبق أن ذكرنا أطرافا من المقارنة دعنا إليها الضرورة، أما هنا فنفردها بمزيد من التفصيل .

(٣٥) انظر: التصوير الفني في القرآن الكريم، سيد قطب / ١٨٠، ط: دار الشروق، ٢٠٠٢، ط: السادسة عشر.

المطلب الأول: تعريفات حول القصة^(٣٦):

القصة حكاية مصطنعة مكتوبة نثرا تستهدف استثارة الاهتمام سواء أكان ذلك بتطور حوادثها أو بتصويرها للعادات والأخلاق أو بغرابة أحداثها. فهي تسعى لهدف بعينه وهو إحداث تأثير مفرد مهيم بما يمتلكه من عناصر الإثارة والتشويق.

وفي أغلب الأحوال تركز القصة على شخصية واحدة تدور حوله في مواقف متعددة، وأحداث متواصلة. ولا بد أن تكون الوحدة هي المبدأ الموجه لها. والكثير من القصص يتكون من شخصية (أو مجموعة من الشخصيات) تقدم في مواجهة خلفية أو وضع، وتنغمس خلال الفعل الذهني أو الفيزيائي في موقف. فالتوتر من العناصر البنائية للقصة، كما أن تكامل الانطباع من سمات تلقيها بالإضافة إلى أنها كثيراً ما تعبر عن صوت منفرد لواحد من جماعة مغمورة.

الأنواع القصصية:

* الرواية: هي أكبر الأنواع القصصية حجماً.
* الحكاية: وهي وقائع حقيقية أو خيالية لا يلتزم فيها الحاكي بقواعد الفن الدقيقة.

* القصة القصيرة: تمثل حدثاً واحداً، في وقت واحد وزمان واحد، يكون أقل من ساعة وهي حديثة العهد في الظهور.

* الأقصوصة: وهي أقصر من القصة القصيرة وتقوم على رسم منظر.

* القصة: وتتوسط بين الأقصوصة والرواية ويحصر كاتب الأقصوصة اتجاهه في ناحية ويسلط عليها خياله، ويركز فيها جهده، ويصورها في إيجاز.

(٣٦) انظر: التحرير الأدبي، د/ حسين علي محمد ص ٢٩١-٢١٢ الطبعة الأولى ١٤١٧هـ مكتبة المبيكان.

المطلب الثاني : خصائص القصة الفنية^(٣٧) :

الحادثة :

وهي مجموعة من الوقائع الجزئية، تأتي مرتبة و منظمة على نظام خاص، ففي كل قصة يجب أن تحدث أشياء في نظام معين، وأن تكون حوادثها و شخصياتها مرتبطة ارتباطاً منطقياً يجعل من مجموعة وحدة ذات دلالة محددة.

السرد :

إن الأحداث التي تقوم بها شخصيات القصة، أو تخضع لها يعرضها الكاتب بلغته و أسلوبه، و على الكاتب أن يتوخى السهولة و الخفة و الوضوح في أسلوبه.

الحبكة :

و يقوم عمل الأديب على اختيار الأحداث و تنسيقها و وضعها في نسج فني، يهيئ مقدمة تبتدئ منها القصة ثم يحرك الأحداث و يطورها، ليجعلها تشتبك و تتأزم (العقدة) ثم يتدرج بها إلى الانفراج (الحل). و باختصار أن الحبكة هي التصميم العام المعقول لأحداث القصة.

الشخصية :

و تتمثل في الأبطال الذين تدور حولهم الأحداث، و هم الذين يفعلون الأحداث و يؤدونها، و يجب أن تكون هذه الشخصية حيّة، فالقارئ يريد أن يراها تتحرك، وأن يسمعها و هي تتكلم.

(٣٧) فن القصة د/ محمد يوسف نجم ، ٩، دار الشروق عمان الطبعة الأولى ١٩٩٦ .

والشخصية في القصة غالباً ما تكون كما يلي :

أ - شخصية جاهزة : وهي الشخصية المكتملة التي تتميز تصرفاتها ومواقفها بطابع واحد .

ب - شخصية نامية : وهي الشخصية التي يتم تكوينها بتمام القصة .

البيئة :

وتنقسم البيئة إلى قسمين بيئة زمانية وأخرى مكانية .

فكل حادثة تقع لابد أن تقع في مكان معين وزمان معين . وهي لذلك ترتبط بظروف وعادات ومبادئ خاصة بتنازُمان والمكان اللذين وقعت فيها .

الفكرة :

إن القصة تكتب لتقرر فكرة لتنقل خلاصة تأمل أو تجربة شعورية للكاتب أو القاص في الحياة .

المطلب الثالث : ما تنفرد به القصة في القرآن الكريم :

تنفرد القصة القرآنية بإنفرادات تميزها عن القصة في الأدب في القديم وفي الحديث . فكل القصص الأدبي يعتمد على خيال محض ، أو بعض من الحقيقة ويبني عليه الكثير من الأوهام والتخيلات وهذا يُعد في الأدب ميزة ودلالة على جودة الحبكة ، وسعة ذهن الكاتب .

وقد كان العرب قديماً قبل الإسلام يصيغون القصة على جملة من الأساطير التي لا أصل بها ، وكلما أسرفت في الوهم كلما حظيت بالقبول ، وفي الإسلام ظهر القصص كنوع من الوعظ المدمج في أشخاص وعناصر كثيراً ما تبعد عن الواقع ،

لأنها قصد منها - فقط - الجانب التربوي الوعظي، وأحياناً تأخذ شكلاً فلسفياً كما في (حي بن يقظان) (لابن سينا) (ابن طفيل) (ابن باجة).

وفى هذا القصص الأدبي الفلسفي يجنح الكاتب كل الجنوح إلى حياله المسرف. وتشبيهاته البعيدة عن الواقع والمشاهد والمألوف.

أما القرآن، فقد عرفت بالصدق التاريخي والسردى لأحداثها. رغم الإعجاز الذي لا يقدر عليه الإنسان في التنويع وسُبل العرض، والعرض المجزء. حتى إنك إذا تتبعت قصة بعينها على مر القرآن فستجد تواصلاً وتكاملاً وتفسيراً وكشفاً وبياناً، فبعضها يصدق بعضها ويؤيده ويكشف صدقة واتساقه.

إذاً الفارق الأول بين القصة القرآنية والأدبية، أن القصة القرآنية لا خيال فيها ولا كذب، أما الأدبية - في الشرق والغرب - جعلت الركيزة الأولى والأساسية الخيال، وكلما زاد في الخيال، وبعد عن الواقع كلما أثارت شغف القارئ وحظيت بالقبول.

ولنضرب لذلك مثلاً:

في الأدب العربي قديماً (ألف ليلة وليلة) (البخلاء للجاحظ) ونحوهما، نجد تصويراً مبالغاً فيه للأحداث والتحليلات، وكلما برعت القصة في التصوير الخيالي الذي يجذب القارئ ويشوقه ويدعوه للاستمرار والتتبع كلما حظي السرد بالقبول والشهرة، فقد بالغ (الجاحظ) في وصف بخل البخلاء بطرق عجيبة، وفي القصص الحديث أيضاً تميل بعض المدارس إلى مثل هذا الجنوح.

وقد عُرف في العهد الإسلامي فيما بعد النبي (ﷺ) القصص، وكان الأكثر منهم يسرف في التصوير الكاذب لأشياء كثيرة، وتأمل كتاب (ابن الجوزي) (الموضوعات) تجد عجباً من قصص القصص، من ذلك:

ما رواه ابن الجوزي بسنده إلى جعفر ابن محمد الطيالسي قال : صلى (أحمد ابن حنبل) و (يحيى بن معين) في مسجد (الرصافة) فقام بين أيديهما قاص فقال :

حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا : حدثنا عبد الرازق عن معمر عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ :

(من قال لا إله إلا الله خلق الله من كل كلمة منها طيراً ، منقاره من ذهب وريشه مرجان ... ، وأخذ في قصة نحواً من عشرين ورقة ، فجعل (أحمد بن حنبل) ينظر إلى (يحيى بن معين) ، و (يحيى) ينظر إلى (أحمد) ، فقال له :

أنت حدثته بهذا ، فيقول والله ما سمعت بهذا إلا الساعة فلما فرغ من قصصه ، وأخذ القطيعات ثم قعد ينتظر بقيتها ، قال له (يحيى بن معين) بيده : تعالى ، فجاء متوهماً لنوال ، فقال له يحيى : من حدثك بهذا الحديث ؟

قال : (أحمد بن حنبل) ، و (يحيى بن معين) ، فقال : أنا (يحيى بن معين) وهذا (أحمد بن حنبل) ، ما سمعنا بهذا قط في حديث رسول الله ﷺ ، فقال القاص : لم أزل أسمع أن (يحيى بن معين) أحق ، ما تحققت إلا الساعة ، كأن ليس في الدنيا (يحيى بن معين) و (أحمد بن حنبل) غيركما ، قد كتبت عن سبعة عشر (أحمد بن حنبل) و (يحيى بن معين) (٣٨) .

فتأمل هذا الخبر ، إنه يدلنا على استثناء القصص المسرف في الخيال ، ومدى إقبال العامة عليه ، حتى في المساجد .

ورغم أن هذه القصص كذب ويجب الحذر منها لأنها تتصل بالحديث والدين مباشرة ، رغم ذلك فهي تلقى القبول لدى الخيال الباعث على الأمل والتفاؤل .

(٣٨) انظر : تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة لابن عراق الدمشقي ، تحقيق ، د / عبد الوهاب عبد اللطيف ، ١ / ١٣ ، دار الدعوة ط القاهرة .

وفى الأدب الحديث نجد في بعض المدارس الميل إلى المبالغة المعقدة، التي لاتعطي صورة محددة للنموذج في القصة، مثل الكاتب الأمريكي (جيروم ديفيد سالينجر - ١٩١٩ - ...)، والذي يبالغ كل المبالغة في جعل شخصية القصة مليئة بالصراعات والتناقضات بحيث يعجز القارئ عن وصفه بصفة بعينها، وبحيث يختلط في الذهن وصف القصور العقلي ووصف البراءة والنقاء، فهو يهتم بجذب القارئ فقط .

وربما يريد استعراض الجانب النفسي الإنساني كما هو وربما أراد السطو على منهج الأديرة في المسيحية، وربما سوى ذلك، لكنه فقد الخصوبة في شخصياته، وفقد الفائدة الفعلية منهم بالمبالغة اللاواقعية في طبائعهم المتناقضة (٣٩).

وناهيك عن مدارس الرمز والخيال البيولوجي، مثل الأديب المتشائم (فرانتس كافكا) وقصصه المليئة بالقتامة والانقلابات البيولوجية الخالية من المنطقية .

أما القرآن الكريم فلم يأت لنا إلا بالحقيقة، ويوردها في صور شتى وأساليب متعددة، وبهذا يكون قد ضمن لنا الفائدة، والمصادقية، والتشويق والجذب، ويقول تعالى: ﴿إِنْ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ (ال عمران: ٦٢) .

ولعلنا نلمس أهمية هذه الميزة التي امتاز بها القصص القرآني عن سواه إذا ما طالعنا الهجوم المفتعل من المستشرقين على القصة في القرآن الكريم، فهم يحاولون التشكيك في القصة وأفرادها وزمانها وحقيقتها (٤٠) .

ووقفوا عند قصة (أهل الكهف) . ونظروا إليها بصورة نقدية تخلو عن المنطقية فهم ينقدون عدم ذكر الأمكنة وعدد الأشخاص، وتواريخ الأحداث

(٣٩) انظر موسوعة أدباء أمريكا، د/ نبيل راغب، ١، ٢٣٦ - ٢٤٠، ط١ - دار القاهرة.

(٤٠) انظر: الآلئ الحسنان في علوم القرآن، د.أ. موسى شاهين لاشين، ٣١١، وما بعدها، مطبعة دار التأليف، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.

ويزعمون أن هذا دلالة على عدم الواقعية .

كما أنهم يفسرونها تفسيراً عجيباً فحواه: أن هذه القصة ترمز إلى الاضطهاد الذي عانى منه النصارى هذه المدة المذكورة في الآية ﴿ ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا ﴾، وهم بذلك يشككون في مصداقية القرآن .

وأنه من عند الله تعالى، لأن هذا النقد يعود على المصدر، وهو المصدر الإلهي، وقد كذبوا، لأن القصة دون ذكر أسماء ولا تاريخ ولا مكان هي نوع من القصص الرمزي - كما أن القصص الحديث امتلاً بمثل هذا النوع من القصص .

وتأمل معي الزمن الذي دارت فيه القصة والأحداث وهروبهم من الظلم وذهابهم إلى الكهف ونومهم ورقودهم وكلبهم الباسط زراعيه بالوحيد كل ذلك تأمله وإثبته بالحديث الصحيح الذي ذهب فيه نفر من قريش إلى اليهود يسألونهم عن حقيقة نبوة محمد - ﷺ - فقال اليهود: سلوه عن فقيه في الزمن الغابر وكانوا هم أهل الكهف، وتكهنوا في عددهم ﴿ سيقولون ثلاثة أربعمهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم، قل رب أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل ﴾ .

أضف إلى ما سبق أن التاريخ حفظ لنا الكثير عن هذا الخبر (٤١) (٤٢)، كل هذا يقف في وجه المستشرقين ومن يزعمون أن هذا القصص لا أصل له من الواقع .

الفارق الثاني بين القصة القرآنية والقصص الأدبي هو من حيث موضوع القصة ولاشك أن للموضوع أثراً في نفس القارئ سواء كان خفياً أم ظاهراً، وينعكس ذلك على السلوك والتعامل والفكر وحتى اللغة، والقصة الأدبية قديماً وحديثاً لا تخلو من الاهتمام بالشر والغريزة، وكيفية معالجتها، وأحياناً يُسرف القاص في

(٤١) (٤٢) انظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جبار الله محمود بن عمر الزمخشري، ٣، ٥١ - ٦١، شرح وضبط ومراجعة المستشار يوسف الحمادى، مكتبة مصر .

تفاصيل هذا الشر وتلك الغريزة بصورة تنعكس بالسلب على مقصد القصة وهو السير نحو الأفضل والفضيلة .

وفي العصر الحديث تخصصت مدار بجملتها في الموضوعات التي تضر ولا تنفع، وربما يدعى البعض أن المقصد التعريف بالشر للحذر منه، مع أن الحاصل هو أن يذكر المؤلف أبعاداً يتعلمها القارئ القاص للشر والخطيئة .

وربما يجنح الكاتب إلى تفسير السلوك المنحرف تفسيراً تعاطفياً، كأن يفسر سلوك السارق بضرورات الحياة وقلة الزاد، والمجرم بالدوافع الاجتماعية التي أدت إلى صناعة مجرم بداخله والفتاة المنحرفة بأسباب نفسية تكونت لديها من الخطأ التربوي، وفي كل هذا جلب لتعاطف القارئ مع الشخصية المحورية في القصة، وربما دعوة خطية له في سلوك هذا المسلك لحل مشكلاته .

أما القرآن الكريم فالقصة تدور في فلك الموضوع العام للقرآن كله ألا وهو تقويم السلوك الإنساني، بل وتقويم النفس حتى لا تأخذ بصاحبها إلى الطرق المهلكة، وحسبك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩) .

وحتى عندما يعالج القرآن قضايا الشر والغريزة، يأخذها بلطف ومراعاة لمشاعر القارئ فلا يسرف في تفاصيل الشر، بل ويصل الجملة المتحدثة على الشر بجملة توضع ضرره وآثاره، مثل قصة ولدي (آدم) عليه السلام، عندما تحدث عن (قابيل) فقال: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾، لم يفصل بين الفعل والعاقبة حتى لا تعجب نفس القارئ بالشر كفعل أورد فعل فيسعى إليه .

الفارق الثالث بين القصة القرآنية والأدبية هو التعبير عن الحدث بأسلوب رقيق دقيق مهذب . وهذا ما تفتقده القصة الأدبية الحديثة، فعندما يعرض الكاتب لموافق الغريزة ربما ينساق إلى ألفاظ تثير غريزة القارئ وتحرك رغباته للبحث عن هذا

المطلب، وتنشط خيالاته لاستحضار صورة الألفاظ (٤٣).

لكن القصة القرآنية تعاملت مع مثل هذه المواقف بصورة تخلص من كل دافع لتصوير الرذيلة أو السعي إليها .

ولقد ظهر أثر هذا الأسلوب القرآني في لغة العرب وشعرهم ونثرهم وقصصهم، بل وفي حديثهم، لقد جمع القرآن على لهجة واحدة لخلوه من كل فحش وبعد عن الأدب، وتعلم منه العرب البلاغة الراقية والبيان الرائع، وسهولة اللفظ مع حسنه، لغة صافية شفافة، وتعبير رقيق راقٍ .

تأمل عندما يتحدث القرآن عن (قصة يوسف عليه السلام) حال المراودة، شاب يفع، وامرأة حملتها الإرادة على الفعل، تُرى أي تعبير يشمل هذا الحدث دون إسفاف وسماجة، إنه تعبير القرآن عندما يقول: ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه لا يفلح الظالمون ﴾ (٤٤).

الفارق الرابع بين القصة القرآنية والقصة الأدبية من حيث السرد فالقرآن الكريم لا يسرد الأحداث والوقائع سرداً تاريخياً وإنما يسردها حسب ما يترتب عليها من منافع ومضار .

وقد يقف في الموطن على جزء من القصة، هذا الجزء هو المراد بعينه، وهو الذي يفيد في هذا الموضوع، وذلك دون الوقوف إلى جملة القصة وإحداثها، ولذا نجد التكرار من سمات القصص القرآني، لأنه يجزئها ويكرر إحداثها في العديد من السور والمواضع، فتراه يهتم بالجزء الذي يفيد في الموقف، ويدل بصورة - ما -

(٤٣) انظر: سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، د، جمعه سيد يوسف، ص ١١، ١٢٣ الفصل السابع، العلاقة بين اللغة والفكر، عالم المعرفة عدد رقم ١٤٥، ١٩٩٠ م.

(٤٤) يوسف: ٢٣ . وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢، ١٢٠، الحلبي . وانظر أيضاً: تاريخ الادب العربي، العصر الإسلامي، د. شوقي ضيف، ٣٠ - ٣٤، الطبعة الثانية عشر، دار المعارف .

على لازم من لوازمه، فهذا سمت القرآن .

وهذا يختلف كل الاختلاف عن القصة الأدبية التي تعنى كثيراً بالسرد الزمني للأحداث، والوقوف على تفاصيل هنا وهناك كثيراً ما تشغل القارئ عن المقصد والفائدة وربما راح الكاتب يفصل ويشرح موقفاً بعينه ليغرس في نفس القارئ هوى ورغبة وميلاً لأمر ما .

وربما لا يكون العائد من القصة ليس أكثر من " قتل الوقت بالسمر في حديثها، مما يهدر وقت الإنسان، ويصرفه عن استثماره في الخير، وفي الأعم الأغلب تعظم المضار بقبيح القيم التي ترسخها في النفوس من الكذب، والغش، والأثرة، وحب المال، والطمع، مما قد يؤدي إلى تقطيع الأرحام، وإساءة الجوار في سبيل ذلك كله، وما إلى ذلك من مضادٍ كبيرة" (٤٥).

المطلب الرابع: الخصائص التربوية بين القصص القرآني والأدبي:

تشد القصة القارئ، وتوقظ انتباهه، دون توان أو تراخ، فتجعله دائم التأمل في معانيها والتتبع لمواقفها، والتأثر بشخصياتها وموضوعها حتى آخر كلمة فيها.

ذلك أن القصة تبدأ غالباً، وفي شكلها الأكمل، بالتنويه بمطلب أو وعد أو الإنذار بخطر، أو نحو ذلك مما يسمى عقدة القصة، وقد تتراكم، قبل الوصول إلى حل هذه العقدة، مطالب أو مصاعب أخرى، تزيد القصة حبكاً، كما تزيد القارئ أو السامع شوقاً وانتباهاً، وتلهفاً على الحل أو النتيجة .

ففي مطلع قصة يوسف مثلاً، تعرض على القارئ (رؤيا يوسف عليه السلام) يصحبها وعد الله، على لسان أبيه، بمستقبل زاهر، ونِعَم من الله يسبغها على الأسرة الفقيرة المتعثرة، الداعية إلى الله .

(٤٥) دراسات في القصص القرآني، د.أ. محمد السيد جبريل، د.أ. عبد الرحمن عويس، ٤٨، ط ١، ٢٠٠٧/٢٠٠٨ .

وتتابع المصائب والمشكلات على بطل القصة (يوسف عليه السلام) ويتابع القارئ اهتمامه ينتظر تحقيق وعد الله، ويتربح انتهاء هذه المصائب والمشكلات بتلief .

(٢) قبول النفس البشرية في واقعيتها الكاملة :

اهتمت القصة بالنفس البشرية، فتلقفتها بالدرس والتصوير، وإظهار مكنوناتها من الرغبات والشهوات وجملة المشاعر المضطربة، وقد نظرت القصة القرآنية للنفس بصورة متمثلة في أهم النماذج التي يريد القرآن إبرازها للكائن البشري، ويوجه الاهتمام إلى كل نموذج بحسب أهميته، فيعرض عرضاً صادقاً يليق بالمقام ويحقق الهدف التربوي من عرضه .

ففي قصة يوسف يعرض نموذج الإنسان الصابر على المصائب في سبيل الدعوة إلى الله (في شخص يوسف)، ونموذج المرأة المترفة تعرض لها حبائل الهوى فملاً قلبها الحب والشهوة، ويدفعها إلى محاولة ارتكاب الجريمة، ثم إلى سجن إنسان بريء مخلص، لا ذنب له إلا الترفع عن الدنيا والإخلاص لسيده، ومراعاة أوامر ربه، ورغم العبرة التي فيها فلم يوردها إلا مرة واحدة، حتى لا يغرق نفس القارئ في دوامة الرغبات (٤٦) .

ونموذج إخوة يوسف : تدفعهم هواتف الغيرة والحسد والحقد والمؤامرة والمنافرة ومواجهة آثار الجريمة والضعف والحيرة أمام هذه المواجهة .

ونموذج يعقوب : الوالد المحب الملهوف والنبى المطمئن الموصول . يعرض القرآن كل هذه النماذج البشرية عرضاً واقعياً نظيفاً من غير إفحاش ولا إغراء بفاحشة أو جريمة، كما يفعل مؤلفو القصص التي يسمونها واقعية أو طبيعية، من رواد جاهلية القرن العشرين، ذلك أن من أهم غايات القصة القرآنية : التربية الخلقية عن

(٤٦) إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني / ٨٧، ٨٨، ط : مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - ط : رابعة .

طريق علاج النفس البشرية علاجاً واقعياً .

فالقصة القرآنية ليست غريبة عن الطبيعة البشرية، ولا محلقة في جو ملائكي محض، لأنها إنما جاءت علاجاً لواقع البشر، وعلاج الواقع البشري لا يتم إلا بذكر جانب الضعف والخطأ على طبيعته، ثم بوصف الجانب الآخر الواقعي المتسامي الذي يمثل الرسل المؤمنون^(٤٧)، والذي تؤول إليه القصة بعد الصبر والمكابدة والجهاد والمrapطة، أو الذي ينتهي عنده المطاف لعلاج ذلك الضعف والنقص، والتردي البشري في مهاوي الشرك أو حمأة الرذيلة، علاجاً ينهض بالهمم، ويدفع بالنفس للسمو، ما استطاعت، إلى أعلى القمم، حيث تنتهي القصة بانتصار الدعوة الإلهية، ووصف النهاية الخاسرة للمشركين الذي استسلموا إلى الضعف والنقص، ولم يستجيبوا لنداء ربهم فيزكوا أنفسهم .

٣) تربي العواطف

وذلك عن طريق إثارة الانفعالات كالخوف والترقب، وكالرضا والارتياح والحب، وكالتقزز والكراهة، كل ذلك يثار في طيات القصة بما فيه من وصف رائع ووقائع مصطفاة، فقصة يوسف مثلاً تربي الصبر والثقة بالله، والأمل في نصره، بعد إثارة انفعال الخوف على يوسف، ثم الارتياح إلى استلامه منصب الوزارة .

وعن طريق توجيه جميع هذه الانفعالات حتى تلتقي عند نتيجة واحدة هي النتيجة التي تنتهي إليها القصة، فتواجه مثلاً حماسة قارئ القصة نحو يوسف وأبيه، حتى يلتقيا في شكر الله في آخر القصة، ويوجه بُغض الشر الذي صدر عن إخوة يوسف حتى يعترفوا بخطئهم ويستغفر لهم أبوهم في آخر القصة، وهكذا وعن طريق المشاركة الوجدانية حيث يندمج القارئ مع جو القصة العاطفي حتى يعيش بانفعالاته مع شخصياتها، ففي قصة يوسف يعتري القارئ خوف أو قلق

(٤٧) انظر: بحوث في قصص القرآن : عبد الحافظ عبد ربه، ص ٨٩ دار الكتاب اللبناني .

عندما يراد قتل يوسف، وإلقاؤه في الحب، ثم تنشرح العواطف قليلاً مع انفراج الكربة عنه، ثم يعود القارئ إلى الترقب عندما يدخل يوسف دار (العزیز) وهكذا يعيش القارئ مع يوسف في سجنه وهو يدعو إلى الله، حتى يفرح بإنقاذه، ثم بتولييه وزارة مصر، وبنجاة أبيه من الحزن، وهو في كل ذلك رسول الله والداعية إلى دينه (٤٨).

٤) تمتاز القصة القرآنية بالإقناع الفكري بموضوع القصة:

عن طريق الإيحاء، والاستهواء والتقمص، فلولا صدق إيمان يوسف لما صبر في الحب على الوحشة، ولما ثبت في دار امرأة العزيز على محاربة الفاحشة والبعد عن الزلل، هذه المواقف الرائعة توحى للإنسان بأهمية مبادئ بطل القصة وصحتها، وتستهو به صفات هذا البطل وانتصاره بعد صبر ومصابرة طويلة، فيتقمص هذه الصفات حتى إنه لقلدها ولو لم يقصد إلى ذلك، وحتى إنه ليردّد بعض هذه المواقف ويتصورها ويسترجعها من شدة تأثره بها.

عن طريق التفكير والتأمل: فالقصص القرآني لا يخلو من محاورات فكرية ينتصر فيه الحق، ويصبح مرموقاً محفوقاً بالحوادث والنتائج التي تثبت صحته، وعظمته في النفس وأثره في المجتمع، وتأيد الله له. ففي قصة يوسف نجد حواراً يدور بينه وبين فتيين عاشا معه في السجن فدعاهما إلى توحيد الله. وقصة نوح كلها حوار بين الحق والباطل.

وكذلك قصة شعيب، وصالح وسائر الرسل: حوار منطقي مدعوم بالحجة والبرهان يتخلل القصة، ثم تدور الدوائر على أهل الباطل ويظهر الله الحق منتصراً في نتيجة القصة، أو يهلك الباطل وأهله، فيتظاهر الإقناع العقلي المنطقي والإثارة الوجدانية، والإيحاء وحب البطولة (الاستهواء) والدافع الفطري إلى حب القوة

(٤٨) روح المعاني، شهاب الدين الألوسي: ٣٦/١، ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت - بدون.

وتقليد الأقوياء، تتظاهر كل هذه العوامل وتتضافر، يؤيدها التكرار مرة بعد مرة، فما أكثر تكرار بعض قصص القرآن حتى تؤدي بمجموعها إلى تربية التصور الرباني للحياة وللعقيدة واليوم الآخر وإلى معرفة كل جوانب الشريعة الإلهية معرفة إجمالية وإلى تربية العواطف الربانية من حب في الله، وكرهية للكفر وحماسة لدين الله ولحماته، ولرسل الله، وولاء الله وانضواء تحت لوائه، وإلى السلوك المستقيم وفق شريعة الله، والتعامل حسب أوامره، وبهذا تحيط القصة القرآنية نفس الناشئ بالتربية الربانية من جميع جوانبها العقلية والوجدانية والسلوكية وكل ذلك بصورة لا تناقض فيها ولا إضراب (٤٩).

الخاتمة

كانت هذه الدراسة وقفة متأنية مع القصص القرآني، حاولت أن تكون شاملة مستقصية - ما وسعني الجهد - حتى تثمر الدراسة الثمرة المرجوة منها، وهي محاولة استخلاص الأسس والقواعد التي تحكم بناء فن وأسلوب القصة في القرآن الكريم، لتكون بين أيدي الكتاب والنقاد، يبدعون وينقدون على هديها، وقد أسفرت هذه المحاولة عن مجموعة من الحقائق والنتائج، أثبتتها فيما يلي:

أولاً:

القصة القرآنية ليست عملاً فنياً حراً، وإنما هي مقيدة بغرض ديني، ومن النتائج المترتبة على ذلك:

أ- أن الأسلوب القرآني قد يقطع تسلسل الأحداث ويستغني عن تواصل المشاهد القصصية، إذا كان في ذلك خدمة للغرض الديني.

(٤٩) انظر: اللآلئ الحسان في علوم القرآن، د. موسى شاهين لاشين، ص ٣١١، وما بعدها، ط: مطبعة دار التأليف، ١٩٦٨م.

ب- أن القصة القرآنية لا تعتمد إلى الإثارة غير المجدية في تصوير الأحداث مهما كانت ضخامتها وغرابتها، فالأسلوب القرآني لا يطيل الوقوف عند الأحداث الضخمة إلا بقدر ما يخدم الغرض الديني من القصة.

ج- يختلف أسلوب تقديم الحدث أو الشخصية في القصة القرآنية عنه في القصة البشرية، لأن الغاية الدينية هي المقدمة على ما سواها في قصص القرآن، بعكس الكتاب الذين يقدمون دواعي الفن على غيرها من القيم الأخرى.

د - القصة القرآنية لا تحفل بالتحليل النفسي للشخص، بمعنى أنه لا يوجد في القرآن قصة للتحليل النفسي من أوله إلى آخرها بالمعنى الذي تعارف عليه النقاد، لأن القرآن لا يعنيه أن يقدم فناً، وإنما هو كتاب توجيه يعنيه أن يتعامل مع الظاهر المعلن في حياة الشخص.

هـ - ليست الشخصية مرادة لذاتها، وإنما يعرضها القرآن بوصفها نموذجاً يتحرك في الحياة بخيرها وشرها، وليس الحدث مراداً لذاته، وإنما هو معرض للإنسان النموذج، لذا يعرض بالقدر الذي يطلع المتلقي على معدن هذا الإنسان.

و - الأسلوب القرآني يتجاوز لحظات الضعف البشري في حياة الشخص، ليصل سريعاً إلى لحظة الإفاقة التي تعقب التردّي، بعكس الكتاب الذين يطيلون الوقوف في مواقف النشوة، ليصوروا الرذائل بأسلوب مبالغ فيه، وذلك بحجة الواقعية.

ثانياً:

هناك قواعد قصصية سبق القرآن الكريم بها مبدعي فن القصة الحديثة، فهي قواعد مشتركة بين القصة القرآنية والقصة البشرية، ولكن تطبيق القرآن لها جاء بأسلوب أقوم من تطبيق الكتاب ومنها:

أ- سبق القرآن الكريم إلى تأكيد قاعدة "الاقتصاد الفني" وهي تعني أنه لا يجوز للقصص أن يصف إلا ما يدغم الحدث القصصي الذي اختاره ليدير حوله قصته، وذلك بأن يتخلى عن كثير من التفاصيل التي لا تفيد القارئ في شيء.

ب- أن الإضممار القصصي ظاهرة تعد أصلاً من أصول البناء الفني للقصّة القرآنية، ونعني بالإضممار إسقاط كثير من الأحداث، لغاية دينية أو فنية، وهذا الإضممار لم تهتد إليه القصّة البشرية إلا في العقود الأخيرة.

ج- قد تجمع القصّة القرآنية الواحدة بين أصول القصّة القصيرة، والقصّة الطويلة معاً، وهو ما اصطلاح عليه النقاد حديثاً باسم "التصميم".

د- سبق القرآن الكريم إلى تأكيد أن الحوار يجب أن يكون مناسباً للشخصية وللموقف القصصي، وأن تكون المقاومة في القصّة على قدر قوة الصراع بين أطرافها.

ثالثاً:

هناك قواعد مشتركة بين القصّة القرآنية والقصّة البشرية، ولكن استخدام القصّة القرآنية لها يختلف عن استخدام القصّة البشرية، منها:

أ- أن القصّة القرآنية لا تهتم بذكر شخصية المرأة إلا إذا كان لها دور تستدعيه الأحداث، ويحتمه الموقف، فهي لا تستجلب المرأة دون دور، ولا تكون عاملاً من عوامل المتعة والإثارة والتشويق كما يفعل الكتاب.

ب- أن النموذج البشري في القصّة البشرية، نموذج محدود يبدأ من شخص معين، ثم ينتهي بأن يكون نموذجاً لنمط معين من الناس، أما النموذج البشري في القصّة القرآنية فلا يبدأ من شخص، ولكن يبدأ من فكرة تصدق على نمط معين من الناس، ولذا فهو يتصف بالشمول.

ج- يتصف الحوار في القصة القرآنية بالذاتية التي يحتفظ بها للمتحاورين، فهو يعبر عن ذواتهم وشخصياتهم أصدق تعبير، وهذه الذاتية - بالرغم من حرص النقاد على وجودها في القصص البشرية - لا تكاد تتحقق في قصة بشرية كاملة.

رابعاً:

هناك أمران خاصان بالقصص القرآني، وهما:

أ- أن هناك عناصر غيبية تتدخل في الحوار القرآني، فتقطع ما بين المتحاورين، وتأخذ الموقف منهم، لتدلي برأيها فيما يتحاوران فيه، وتقيم لأحد الطرفين حجته، أو تقربها، وهذا الأمر حين يحدث في القصة القرآنية لا يكون غريباً ولا مستنكراً، لأن زمام الموقف كله يكون بيد القدرة الإلهية المهيمنة، وإذا حدث مثل ذلك في القصص البشرية، كان ذلك عيباً في الأسلوب، وخللاً يصيب الحوار.

ب- تقرر القصة القرآنية بين الموعظة والعرض الفني، فهي تقدم الفن والوعظ المباشر الصريح الذي يبين الغرض الديني منها، وفي القصة البشرية يحرص الكاتب إلى عدم اللجوء إلى الوعظ المباشر، بل إن ذلك - إن حدث كان عيباً يبعد القصة عن الفن.

خامساً:

من النتائج الهامة لهذه الدراسة:

١ - أن معظم القصص القرآني يقوم على المزاوجة بين الحوار والسرد، وبذلك يرفض المنهج القرآني، ما جنح إليه كثير من كتّاب القصة القصيرة حالياً من إهمال عنصر الحوار إهمالاً كبيراً، لأن الاعتماد على السرد وحده يجعل القصة أشبه ما تكون بالخبر.

٢ - أن القرآن الكريم يهدم ما أتى به الواقعيون والرومانسيون في نظرة كل منهما إلى الشخصوس القصصية.

٣ - يحرص القصص القرآني على تأكيد وحدة الحدث، وأن يكون الحدث الرئيسي في القصة ممتداً من بدايتها إلى نهايتها، له بداية ووسط ونهاية، وذلك يشير إلى خطأ الاتجاه الجديد في الكتابة الفنية، الذي يميل أصحابه إلى جعل القصة مجموعة من الخواطر المتناثرة، التي لا يجمعها موقف واحد، ولا يربط بينها حدث واحد.

* * *

المقترحات والتوصيات

فيما يلي بعض المقترحات التي ظهرت لي أثناء الدراسة :

١ - يجب زيادة الجرعة التي يتلقاها طلاب كلية التربية الأساسية والشرعية في الكويت خاصة وكليات العلوم الشرعية في كافة دول العالم، مثل كليات أصول الدين، وكليات الدراسات الإسلامية، وكليات اللغة العربية، وكليات علوم القرآن، وذلك عن القصة، بوصفها عمل فني وعقد مقارنة بين القصص البشري والقصص القرآني.

٢ - أن تتواصل الدراسات حول القصص القرآني، وتركز الدراسات بصفة خاصة حول : دراسة القصص المستوحى من القرآن الكريم دراسة فنية تطبيقية وافية، تنفي عن منهج القصة القرآنية ما شابه على أيدي بعض كتاب الفن القصصي.

٣ - يجب على الباحثين الذين يضربون أمثلة عن القصص الرمزية في القرآن الكريم أن يأخذوا بعين الاعتبار أن القصص التي لم يرد بعض أسماء الشخصيات بها ولكنها وردت في الأحاديث النبوية الشريفة، أصبحت

قصص واقعية لأنه لا يوجد فصل بين القرآن والسنة وهذا ما وقع فيه كثير من الباحثين في علوم القرآن .

٤ - يجب تدريب الباحثين بعمل جداول خاصة في الجوانب السمعية والبصرية والحسية في القصص القرآني ولقد ضربت في ذلك بمثالين، وهذا ما تفرد به البحث عن سائر البحوث الأخرى .

٥ - عند دراسة الأزمنة في القصص القرآني كعنصر أساسي من عناصر القصة القرآنية، يجب التركيز على أن الزمن في القصة البشرية طبقاً لقوانين السببية في الحياة، أما الزمن في القصة القرآنية لا يتبع هذه القوانين ويكسر حواجز الزمن الماضي والحاضر والمستقبل مثل قول الله تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ فهنا جمع الله بين الزمن الماضي والمستقبل لأنه خالق الزمن فقله ليس فيه جدال .

وآخر دعوانا الحمد لله رب العالمين

وصلّى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .

- إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، ط : مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - ط : رابعة .

- اللآلئ الحسان في علوم القرآن، د . موسى شاهين لاشين، ط : مطبعة دار التأليف، ١٩٦٨ م .

- التصوير الفني في القرآن الكريم، سيد قطب، ط : دار الشروق، ٢٠٠٢، ط : السادسة عشر .

- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، شرح وضبط ومراجعة المستشار يوسف الحمادي، مكتبة مصر .
- بحوث في قصص القرآن: عبد الحافظ عبد ربه، دار الكتاب اللبناني .
- تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، ط: مكتبة دار التراث، القاهرة، بدون .
- تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة لابن عراق الدمشقي، تحقيق، د / عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الدعوة ط ١ القاهرة .
- تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، د. شوقي ضيف، الطبعة الثانية عشر، دار المعارف .
- دراسات في القصص القرآني، أ.د، محمد السيد جبريل، أ.د، عبد الرحمن عويس، طبعة جامعة الأزهر.
- روح المعاني، شهاب الدين الألوسي، ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت - بدون .
- سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، د، جمعه سيد يوسف، الفصل السابع، العلاقة بين اللغة والفكر، عالم المعرفة عدد رقم ١٤٥، ١٩٩٠ م .
- على هامش السيرة. طه حسين، دار المعارف .
- الفن القصصي: محمد أحمد خلف الله، مكتبة النهضة .
- في فوائد التكرار على سبيل المثال: البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، الحلبي .
- القصص القرآني: عبد الكريم خطيب، دار الفكر العربي .
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، مادة (قصص)، الناشر: دار صادر - بيروت الطبعة الأولى .

- مباحث في علوم القرآن للقطان، ط٧، الناشر مكتبة وهبه .
- منهج الفرقان في علوم القرآن، الشيخ محمد علي سلامة، مطبعة شبيرا، ١٩٧٣م.
- المنهج القويم إلى علوم القرآن الكريم، د. محمد السيد جبريل، ط: منارات للإنتاج الفني والدراسات - الطبعة الأولى - القاهرة، ٢٠٠٧م.
- موسوعة أدباء أمريكا، د/ نبيل راغب، ط١ - دار القاهرة .
- المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين ابن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني .
- نقد كتاب (الفن القصصي في القرآن) - للأستاذ محمد الخضر حسين .

* * *

القسم الثالث منوعات

- ١ - مؤتمرات.
- ٢ - ندوات.
- ٣ - رسائل علمية.
- ٤ - عرض كتب.
- ٥ - مسابقات.
- ٦ - لوحة العدد.
- ٧ - إصدارات.

